

أعلى قصائد الصوفية



بحري كاسر



89
08

أحلى قصائد الصوفية

دار الكتاب العربي

سوريه - دمشق - الحجاز

ش مسلم البارودي - مدخل فندق الشموع ط- ١

هاتف : ٢٢٣٥٤٠١ - ٢٢٣٨١١

ص . ب : ١٣٣٤٤ فاكس : ٢٣٤٥٩٤

مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبد الخالق ثروة - شقة ١١

هاتف : ٣٩١٦١٢٢ فاكس : ٢٦٩٤٤٤٨

رقم الإيداع : ٩٧ / ٢٧٠٦

الترقيم الدولي : 3-22-5346-977

الطبع : عربية للطباعة والنشر

العنوان : ٧ ، ١٠ ش أرض اللواء - المهندسين

تليفون : ٣٠٣٦٠٩٨ - ٣٠٣١٠٤٣

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

مجدي كامل

أحلى قطائيد الطوفية



تَقَاتِلِ السَّيِّئَ

لقد كان ظهور الشعر الصوفي في أدبنا العربي معاصرا لظهور التصوف ذاته. فقد عبر أوائل التصوف عن أنفسهم، وطرقهم، وحبهم الإلهي شعرا، كما لو كانوا قد اختاروا هذا الفن الأدبي الرفيع حتي يكون وسيلتهم في نشر التصوف وأصوله. ومنذ فجر التصوف، وحتى اليوم، يتخذ الصوفية من الشعر قالبا للتعبير عن "المحبة" التي تعني عندهم طريق الوصول إلى الله تعالى. وقبل أن نتحدث عن هذا اللون من الشعر الصوفي وخصائصه، يجدر بنا أن نعرف في البداية معنى التصوف نفسه.

لقد عرف البعض التصوف علي أنه فلسفة المسلمين، علمهم في الأخلاق، كما قال آخرون إنه منطق المسلمين، وفي تحديد معنى كلمة «التصوف» يطالعا أكثر من رأي وتفسير، فهناك من يقول إن كلمة «التصوف» مأخوذة من كلمة «صوفيا» اليونانية، ومعناها، الحكمة.

وهناك من يقول ان الكلمة منسوبة إلي لبس الصوف الخشن الذي تعود الصوفية لبسه منذ القدم، وهناك من يقول هي نسبة إلي قبيلة «صوفة» التي كانت منقطعة لخدمة الكعبة، وهناك من يقول: ان الكلمة نسبة إلي «الصفة» وهي مكان بآخر لمسجد الرسول ﷺ، وهناك من يقول، ان الكلمة نسبة إلي الصفاء والمصافاة.

وهناك من يقول غير ذلك من الآراء والتفاسير، ومهما كان القول والرأي فإن علماء الأخلاق والتهديب الروحي، يقولون، إن حقيقة التصوف الكاملة الفاضلة هي مرتبة «الاحسان» التي يفسرها الرسول عليه الصلاة والسلام في حديثه المشهور بقوله، «الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ومعنى هذا أن التصوف الصادق هو الذي يقوم علي اخلاص العبادة لله، بلا تصنع ولا تكلف، ودون رياء أو نفاق، وذلك يقتضي أن يكون الانسان مسلما حقا، وأن يكون مؤمنا صادقا، ويحسن الجمع بين اسلامه وایمانه، ويزينهما باحسانه واتقانه، عن طريق المراقبة لله، والمحاسبة للنفس، وقبل أن يصير الحساب إلي غيرها، كما قال الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، وتهياؤا للعرض الأكبر، يوم تمرضون علي ربكم لاتخفي منكم خافية».

وهناك اصطلاحات صوفية تشير إلي هذه المعاني، كالصفاء وهو عند الصوفية يقصد به التوحيد الخالص الذي اقرت به كل الارواح قبل خلق الأجساد.

وهناك التواضع وهو واحد من أهم الاخلاق الصوفية التي يتحلي بها المبتدئ، والواصل علي السواء، وهو علاج لما جبلت عليه النفس من الكبر.

وهناك رموز صوفية كالخمر مثلاً ويقصد بها انوار الله والسكر ويقصد به سكر الارواح. وهناك ما يعرف عند الصوفية بتجلي الاسماء الالهية، وهي حالة من الترقى الصوفي، تكون بعد الفناء التام.

وينبغي أن نلاحظ أن التصوف ليس همهمات ولا تمتمات، وليس خروجا علي شريعة الله في قليل أو كثير، فالتصوف الصحيح أساسه التقيد بالقرآن والسنة، والخضوع لأوامر الله وأحكامه، وكل من خرج علي حكم الله وأمره، فدعواه أنه متصوف دعوي باطلة، لا يقرها شرع ولا عقل.

والتصوف ليس بالمظاهر والأشكال، ولا بلبس المرقعات أو تعليق المسابيح، بل هو أن يعمر الإنسان صدره بالصلة بالله، والخوف منه، والرجاء فيه، والله جل جلاله يقول في سورة الطلاق: «ومن ينق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل علي الله فهو حسبه، ان الله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شيء قدرا».

وهناك كثير من ادعياء التصوف يتوهمون أو يزعمون أن التصوف معناه عدم السعي أو عدم العمل، ويظنون أن التصوف كسل وبطالة، ونفور من الجهد والاجتهاد في شعاب الحياة الفاضلة الطيبة، ولو قبلنا هذا التصوير المنحرف للتصوف لكان نكبة علي المجتمع الاسلامي، وكان تمردا علي توجيه الحق جل جلاله الذي يقول في سورة الجمعة، «فإذا

قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض، وابتغوا من فضل الله وأذكروا الله كثيراً لعلمكم
تفلحون».

ويظهر أن الذين حملوا علي التصوف وأهله تلك الحملة القاسية الشعواء، كانوا
متأثرين بتلك الصورة التي رسمها للتصوف أولئك الادعياء الذين لم يصدقوا في إيمانهم
واحسانهم، ولم يتقنوا العمل الجامع بين خيري الدنيا والآخرة. مع أن الأثر الاسلامي
الحكيم يقول: «اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً، وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

وعلي الرغم من أن البعض يرجع بأصول التصوف إلي أيام الصحابة، بل إلي أيام
النبوة، إلا أن الأكثر شيوعاً بين الباحثين هو أن البداية الحقيقية للتصوف كنمط متفرد من
التقرب إلي الله كان ابان القرنين الثاني والثالث الهجريين. وهما القرنان اللذان شهدا
ميلاد الشعر الصوفي، وهكذا فإن بدء الشعر الصوفي، هو نفسه بدء التصوف.

وما أن جاء القرن السادس، حتي كان الشعر هو أكثر أدوات التعبير الصوفي شيوعاً.
والحب الصوفي هو أكثر ما يميز به شعر الصوفيين، ويجعل من أشعارهم قصائد
نورانية تخلب القلب، وتستحوذ علي القواد.

فالحب الصوفي يتخذ فيه الشاعر من الذات الالهية موضوعاً يدور حوله، وفيه يصف
الحب ولذته، وما يجده من لوعة وأسي أو قرب ووصال. وكذلك ما يمر به في تصوفه من
مقامات وأحوال، ومجاهدة مستمرة للنفس، وما يتعرض له من فيض رباني، والهام
قلبي، وسمو روحي.

وفي شعر الصوفيين يتجسد هذا الحب الصوفي الالهي الغامر الذي نراه ينقسم
شقين: شق يتعلق بحب الله تعالى للعبد... وآخر يتعلق بحب العبد لله، وكلاهما أفاض
فيه الشعراء الصوفيون.

وفي هذا الكتاب نحاول أن نسلط الضوء علي عدد من أشهر شعراء الصوفية، الذين
قدموا للإنسانية نتاجاً شعرياً رائعاً وتراثاً إنسانياً خالداً آمليين من المولي عز وجل ان يحظي
برضاك، واستحسانك.

مجدى حسين كامل

1. The first step in the process of identifying a problem is to recognize that a problem exists. This involves gathering information about the situation and identifying the specific issue that needs to be addressed. Once the problem is identified, the next step is to define the problem clearly and concisely. This involves stating the problem in a way that is specific and measurable, and identifying the goals that need to be achieved to solve the problem. The third step is to generate potential solutions. This involves brainstorming ideas and considering different approaches to solving the problem. The fourth step is to evaluate the potential solutions. This involves comparing the different solutions and determining which one is the most feasible and effective. The final step is to implement the chosen solution. This involves putting the solution into action and monitoring the results to ensure that the problem is solved.

◆ ◆ ◆

هذا الشاعر الصوفي الذي عاش في بغداد وتوفي فيها سنة ٢٩٨ هـ صاحب مدرسة شعرية متفردة، يصعب تجاهلها، سواء عند الحديث عن الشعر العربي، بوجه عام، أو الصوفي علي وجه الخصوص. وسمنون المحب ليس هو اسم شاعرنا الحقيقي، وإنما كان هذا هو اللقب الذي أطلقه عليه معاصروه، لأنه توقف أمام المحبة، فجعلها طريقه للوصول إلى الله، ووصل فيها إلى منتهاى المنتهى.

كما كان سمنون المحب ينسج في المحبة الالهية غزلياته، حتي أصبح معروفا بتخصصه في المحبة، متفردا في الحديث عنها بلسان العاشق، لدرجة أنه إختص باسم «المحب»، دون سائر شعراء الصوفية ممن عاصروه.

كما أنهم وصفوا كلامه بأنه «أحسن كلام، وشعره لا يدور الا عن الصد والهوي والجفا والصبر والرجا والوجد والعتاب والشوق والوصال والبين والبكاء والمذاب والصباة».

يروى «الهجويري» في كتابه «كشف المحجوب» عن سمنون المحب وكراماته، أن سمنون كان عائدا من الحج، فتوقف بمدينة «فيد» فطلب أهلها منه أن يحدثهم، ولما اعتلي سمنون المنبر، وجد نفسه يتحدث والناس يتشاغلون فيما بينهم فلا يستمع اليه أحد، فالتفت سمنون إلى قناديل المسجد وقال، «اني أتحدث اليك».. فاصطكت القناديل وتحطمت كلها.

ولكن «سمنون المحب» لم يكن لقب شاعرنا الوحيد، فهناك لقب آخر أطلقه هو علي نفسه هو «سمنون الكذاب» ووراء ذلك قصة يرويها المؤرخون، وتبدأ ببيتين من الشعر أشدهما سمنون علي النحو التالي:

وليس لي سواك حظاً فكيف اشت فامتنحني

ان كان يرجو سواك قلبي لانلت سُؤلي ولا التسمني

ويقال أنه لم يكد سمنون ينشد بيتيه هذين، حتي ابتلي باحتباس البول وذاك هو الامتحان، وأخذ يتلوي من الألم، ويدور في الكتاتيب، يرجوا الصبية أن يدعوا الله أن يعجل بشفائه قائلاً: ادعوا لعمكم الكذاب، اشارة إلي تراجعه عما قاله في بيتيه، واظهاره للجزع، والتأدب بآداب العبودية. وعندما أطلق بوله قال: يارب تبت اليك، أي تبت عن طلب الامتحان.

ويتفرد سمنون المحب دون غيره من شعراء الصوفية بأن معظم أشعاره عبارة عن ترانيم عشق قصار، فلا يوجد في شعره قصيدة مطولة، بل مقطوعات متفرقة لاتزيد الواحدة علي أربعة أبيات.

وستقدم هنا بعض المقطوعات الشعرية المتفرقة التي تعبر عن الارتباط الوثيق بين الشعر والمحبة عند سمنون، وكيف كان هذا الشعر رقيقاً للغاية، وكيف كان سمنون نفسه يبرر هذه الرقة بقوله: لايعبر عن الشيء الا بما هو أرق منه، ولاشيء أرق من المحبة.

حتين قلوب العارفين إلي الذكر	وتذكسارهم وقت المناجاة للسر
ولاعيش إلا مع رجال قلوبهم	نحن إلي التقوي وترتاح للذكر
أديرت كؤوس للمنايا عليهمو	فأغفوا عن الدنيا كاغفاء ذي السكر
همومهمو جواله بمسكر	به أهل ود الله كسالأنجم الزهر
فأجسادهم في الأرض قتلي بحبه	وأرواحهم في الحجب نحو العلا
فما عرسوا إلا يقرب حبيبهم	وما عرجوا عن مس بؤس ولا ضر
سكون إلي روح اليقين وطيبه	كما سكن الطفل الرضيع إلي الحجر
بكيت ودمع العين للنفس راحة	ولكن دمع الشوق ينكي به القلب
وذكري لما القاه ليس بناقصي	ولكنه شيء يهيج به الكرب

فلو قيل ما أنت؟ لقلتُ معذبٌ
بليتُ بمن لا أستطيع عتابه
بنار مواجيدٍ يضرُّها العتبُ
ويعتُبنني حتي يُقال لي الذنبُ

أفديك بل قل أن يفديك ذو دنفٍ
بي منك شوقٌ لو أن الصخر يحمله
هل في المنة للمشناق من عارٍ
تفطر الصخر عن مُستوقد النارِ
قد دبَّ حبُّك في الأعضاء من جسدي
ولا تنفستُ إلا كنت مع نفسي
ديب لفظي من رُوحِي وإضماري
وكل جارحة من خاطري جاري

ضاعفٌ عليَّ بجهدك البلوي
واجهد وبالع في مهاجرتي
وابلغ بجهدك غاية الشكوي
واجهر بها في السرِّ والتجوي
فإذا بلغت الجهد في فلم
فانظر فهل حالِّي انتقلت
عما تُحب بحالةٍ أخري

وكان قلبي خاليًا قبل حبكم
فلما دعا قلبي هواك أجابه
وكان بذكر الخلق يلهو ويمرحُ
فلست أراه عن فنانك يبرحُ
رُميت بين منك أن كنت كاذبًا
وان كان شيء في البلاد بأسرها
فلست أري قلبي لفيرك يصلحُ
إذا غبت عن عيني بعيني يلمحُ
فإن شئت واصلني وإن شئت لاتصل

تجرعتُ من حالِّه نَعَمي وأبؤسا
فكم غمرة قد جرعتني كؤوسها
زمانٌ إذا أمضي عزَّاليه أحتسي
فجرعتها من بحر صبري أكؤوسا

تدرّعتُ صبري والتحفتُ صروفي وقلتُ لنفسي الصبر أو فاهلكي أسي
خطوباً لو أن الشَّمَّ زاحمناً خطبها لساخت ولم تدرك لها الكفُّ ملمسا

* * *

أنا راضٍ بطول صدك عني ليس إلا لأن ذلك هواك
فامتحن بالجفا صبري علي الودّ ودعني مملّقا برجأكا

* * *

شغلت قلبي عن الدنيا ولذتها فأنت والقلب شيءٌ غير مفترق
وماتطابقت الأحداق من سِنَةٍ إلا وجدتك بين الجفن والحدق

* * *

ولو قيل طأ في النار أعلم أنه رضي لك أو مُدِّن لنا من وصالك
لقدّمتُ رجلي نحوها فوطئتها سروراً لأنّي قد خطرتُ يمالك

* * *

أحنُّ بأطرافِ النهارِ صباةً وبالليل يدعوني الهوي فأجيبُ
وأيامنا تُفني وشوقي زائدٌ كأنَّ زمانَ الشوقِ ليس يغيبُ

* * *

يعاتبني فينبسط انقباضي وتسكن روعتي عند العتابِ
جري في الهوي مُذ كنتُ طفلاً فمالي قد كبرتُ علي التصابي

* * *

أَمْسِي بِخُدَّيْ لَلدَّمُوعِ رَسُومُ أَسْفَاءُ عَلَيْكَ وَفِي الْفُؤَادِ كَلُومُ
وَالصَّبْرُ يَحْسُنُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا إِلَّا عَلَيْكَ فَإِنَّهُ مَذْمُومُ

أَنْتَ الْحَبِيبُ الَّذِي لَأَشْكُ فِي خَلْدِ مِنْهُ، فَإِنْ فَقَدْتُكَ النَّفْسُ لَمْ تَعِشِ
يَا مَعْطِئِي يَوْصَالَ أَنْتَ وَاهِبُ سَهْ هَلْ فِيكَ لِي رَاحَةٌ إِنْ صِحْتُ، وَاعْطِئِي

كَأَنَّ لِي قَلْبًا أَعْيِشُ بِهِ ضَاعَ مَنِّي فِي تَقَلُّبِهِ
رَبِّ فَنَارِدْهُ عَلَيَّ فَسَقَدْ ضَاقَ صَدْرِي فِي تَطَلُّبِهِ
وَأَغِثْ مَسَادِمَ بِي رَمَقُ يَاغِيَّاتِ الْمُسْتَفْهِثِ بِهِ

يا واحد الحسن..

أحلي الهوي أن يطول الوجد والسقمُ
وأصدق الحب ما حلت به التهمُ
ليت الليالي أحلامًا تمسودُ لنا
فربما قد شفي داء الهوي الحلمُ
« عفيف الدين التلمساني »

ينتسب عفيف الدين التلمساني إلى "تلمسان". وكان ميلاده بها سنة ٦١٠هـ ويرجع أصله إلى إحدى عوائل الكوفة، وتنقل كثيرا في البلاد، حتى وصل مصر وأقام فيها، وأجّب ابنه الشاعر المشهور شمس الدين التلمساني.

ويعد العفيف التلمساني - كما كان ينادي - من الصوفية الذين أثاروا الجدل، ودخلوا في معارك فكرية، وفلسفية، انتهت باتهامه بالكفر والزندقة، وبأنه من أتباع ابن عربي، ومن القائلين بوحدة الوجود، إلى الدرجة التي أطلق عليه ابن تيمية «الفاجر التلمساني» الملقب بالعفيف.

ولكن التلمساني كان رغم جميع اتهامات خصومه شاعرا كبيرا، وكان له شعر غزلي يشرحه شرحا صوفيا علي طريقته، ولكن حتى هذا الشعر لم يسلم من نقد عماء عصره، الناقمين عليه، حتى أنه قيل عنه من جانب أحدهم «لحم خنزير في طبق صيني» نسبة إلى جمال وجودة قلبه الشعري.

ولم يترك التلمساني شعرا كثيرا عقب وفاته سنة ٦٩٠هـ، اللهم بعض المقاطع الشعرية المتناثرة هنا وهناك، أو الأبيات. ومن شعره الصوفي يقول:

يا غائبين ووجدني حاضرا بهم	وعائبين وذنبني في الغرام هم
بتم فلا طرف الا وهو مضطرب	شوقا ولا قلب الا وهو مضطرم

وهناك أبيات رائعة تعكس مدي ما كان يتمتع به التلمساني من حس شعري، وقدرة علي صياغة أفكاره الصوفية بطريقة محكمة، وفي أسلوب عذب، يدخل القلب بلا عناء. يقول التلمساني في هذه الأبيات الخلوة:

أبداً بذكرك تنقضي أوقاتي	ما بين سَمّاري وفي خلواتي
يا واحد الحسن البديع لذاته	أنا واجدُ الأحزان فيك لذاتي
ويحبك اشتغلت حواسي مثلاً	بجمالِك امتلأت جميعُ جهاتي

عندي اشتغلت بها عن اللذات
تختار من محوي ومن إثباتي

حسبي من اللذات فيك صباية
ورضاي أني فاعل برضاك ما

* * *

عن كل ماض في الزمان وآت
منها خلا وقتنا من الأوقات

يا حاضراً غابت له عاشقه
حاسبت نفسي فلم أر واحداً

* * *

ويقول عفيف:

أَنْ تُرَي دُونَ بُرْقِعِ أَسْمَاءُ
وَهَدَّتْنَا بِهَا لَهَا الْأَضْوَاءُ
يَا الْقِسْمِي وَفِي الرَّحَالِ الْمَاءُ
كَانَ مِنْ شِدَّةِ السُّرُورِ الْبُكَاءُ
فِي هَوَاهَا فَلَيْئَسَ الْأَحْيَاءُ
لَا بِنَا بَلْ بِهَا لِيَصْنِفُوا الصَّفَاءُ
وَمُحِبُّوْنَهَا بِهَا الْأَصْدَاءُ
مَسْمَعِ الْفَقْرِ مِنْكَ ذَاكَ الْغِنَاءُ
هِيَ فَنِيْهَا تَتَأَفَسُ النَّدَامَاءُ
رَبِّمَا طَوَّحَتْ بِكَ الصَّهْبَاءُ
نَسَامِي هُمْ لَهَا أَكْفَاءُ
فِي ابْتِدَاهُمْ بِهَا فَتَمَّ الْوَقَاءُ

مَتَعَتْهَا الصِّفَاتُ وَالْأَسْمَاءُ
قَدْ ضَلَلْنَا بِشَعْرِهَا وَهُوَ مِنْهَا
كَيْفَ بَيْنَا مِنَ الظُّلُمَا تَشَاكِي
كَمْ بِكَيْنَا حُزْنًا بَيْنَ لَوْ عَرَفْنَا
نَحْنُ قِسْمٌ مِثْلُنَا وَذَلِكَ مُسْرَطٌ
وَأَقَامَتْ نَفْسُنَا فِي حِمَاهَا
فَسَا لَلْجَبِّي إِذَا دَعَتْ هِيَ مِنَّا
يَا أَبَا الْخَبْرِ قُمْ لَكَ الْخَيْرُ فَاطْرِبْ
لَا تَفُتْ كَأْسَكَ الَّتِي مِنْ لَمَاهَا
لَمْ أَقُلْ قَدْ عَدْتُكَ كَأْسَكَ لَكِنْ
إِنَّمَا يَشْرَبُ الَّتِي تَسْلُبُ الْعَقْلَ
أَسْكُرُوهَا بِهِمْ كَمَا أَسْكُرْتَهُمْ

فَجَزَاءُ مِنْهَا وَمِنْهَا وَمِنْهُمْ وَفَاقُ
قَدْ تَسَمَّتْ بِهِمْ وَلَيْسُوا سِرَافًا
ويقول:

أَيْتَكُرُ الْوَجْدُ أَنِّي فِي الْهَوَى شَحْبُ
وَمَسَّالَتُ كَمَا ظَنَّ الْوَشَاةُ وَلَا
فَإِنْ بَكِي لِصَبَابَاتِي عَذُولُ هَوَى
نَاشِدْتُكَ اللَّهُ يَا رُوحِي أَذْهَبِي كَلْفَا
لَا تَسْأَلِيهِمْ ذِمَامًا فِي مَحَبَّتِهِمْ
هُمْ أَهْلُ وَدَيِّ وَهَذَا وَاجِبٌ لَهُمْ
هُمْ أَلْبَسُونِي سِقَامًا مِنْ جُفُونِهِمْ
وَصَيَّرَتْ أَدْمُعِي حُمُرًا خُلُودَهُمْ
هَلِ السَّلَامَةُ إِلَّا أَنْ أَمُوتَ بِهِمْ
إِنْ يَسْتَلْبُوا الْبَعْضَ مِنِّي فَالْجَمِيعُ لَهُمْ
لَوْ تَعَلَّمُ الْعَذَابَاتُ الْمَلَائِكَاتُ بِمَنْ
وَلَوْ دَرَى مَنَهْلُ الْوَادِي الَّذِي وَرَدُوا
إِنِّي لَا أَكْتُمُ أَنْفَاسِي إِذَا ذُكِرُوا
وَتُرْسِلُ الدَّمَغُ عَيْنِي فِي مَنَازِلِهِمْ
كَذَا لِكُلِّ مَحَبٍّ غَيْرَةٌ لَهُمْ
أَسْأَلُ الْبَانَ عَنْ مَيْلِ النَّسِيمِ بِهِمْ
وَتِلْكَ آثَارُ لَيْنٍ مِنْ قُلُودِهِمْ

وَوِفَاقُ مِنْهَا وَمِنْهُمْ جَزَاءُ
فَالْمَسْمَى أَوْلَعَكَ الْأَسْمَاءُ

وَدُونُ كُلِّ دُخَانٍ سَاطِعٍ لَهَبُ
أَسْأَلُو كَمَا يَتَرَجَّى الْعَاذِلُ التَّعَبُ
فَلِي بِمَا مِنْهُ يَبْكِي عَاذِلِي طَرَبُ
يَحُبُّ قَوْمٌ عَنِ الْجُرْعَاءِ قَدْ ذَهَبُوا
فَطَالَمَا قَدْ وَفَا بِالذِّمَّةِ الْمَرْبُ
وَلِنَّمَا وَدَّعُهُمْ لِي فَهُوَ لَا يَجِبُ
أَصْبَحْتُ أَرْفُلُ فِيهِ وَهُوَ يَنْسَحِبُ
فَكَيْفَ أَجْحَدُ مَا مَنُوتُوا وَمَا وَهَبُوا
وَجَدَا وَإِلَّا فَبُقِّيَايَ هُوَ الْعَطَبُ
وَأِنْ أَشْرَفَ أَجْزَائِي الَّذِي سَلَبُوا
قَدْ بَانَ عَنْهَا إِذَنْ مَا اخْضَرَّتِ الْعَذَبُ
مَنْ وَارِدُوا مَسَائِهِ لَا هَتَرَهُ الطَّرَبُ
كَيْلًا يَحْرِقُهُمْ مِنْ زَفَرَتِي اللَّهَبُ
كَيْلًا تُسَابِقُهَا فِي سَحَابِ السُّحُبُ
وَعِنْدَ كُلِّ غَيُورٍ فِطْنَةٌ عَجَبُ
سَوَّالٌ مَنْ لَيْسَ يُذَرِّي فِيهِ عَا السَّبَبُ
مَرَّتْ بِهَا الرِّيحُ فَاهْتَزَّتْ لَهَا الْقَضْبُ

وارحمتاً للهاشقين..

يا صبح ليس علي المحب ملامة
ان لاح في أفق الصبح صبح
لا ذنب للمشاق ان غلب الهوي
كتمانهم، فنما القرام، فباحوا

« السهروردي »

يلقب شهاب الدين السهروردي عادة بـ"الصوفي القتييل"، نسبة إلى مقتله بأمر من صلاح الدين الأيوبي بعد أن اتهمه عدد من خصومه من علماء حلب بالكفر والخروج علي السنة. وقد حاول البعض ومنهم ابن صلاح الدين الملك الغازي انقاذه، نظرا لما يجمعهم به من صداقة، دون جدوي، حيث أصر خصوم السهروردي علي تنفيذ أمر القتل، وهكذا لقي حتفه.

ويري البعض أن خطأ السهروردي الوحيد كان هو محاولته الخوض في فلسفة الدين في عصر ليس لدي علمائه استعداد لذلك، كما كان تصوفه يختلف كثيرا عن أقرانه، مما قلبهم عليه، فمجلوا بالتخلص منه، وهو لم يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره.

ورغم سني عمر السهروردي التي لم تتجاوز الأربعين إلا أنه ترك للمكتبة العربية والتصوفية نحو ٤٩ كتابا معظمها في التصوف، ومنها «رسالة أصوات أجنحة جبرائيل»، و«كلمة التصوف»، و«مقامات الصوفية ومعاني مصطلحاتهم»، و«الغربة الغريبة»، و«الكلمات الذوقية والنكات الشوقية»، و«مؤنس العشاق»، و«الواردات الالهية»، و«البارقات الالهية والنعيمات السماوية»، و«لوامع الأنوار».

ومع ذلك يبقى كتاب «حكمة الاشراق»، الذي ضمنه السهروردي فلسفته في التصوف «الاشراقية» هو أهم كتبه، وهي امتداد للسلسلة التي بدأها الحلّاج، الذي ورد ذكره في احدي مواضع هذا الكتاب، وهو (السهروردي) يدعوه باسم «أخيه»، ويؤلف كتبه في شكل توجهات صوفية، وعلي هيئة رؤي.

وللسهروردي الذي ولد بـ«سهرورد» من أعمال «زليخان» أشعار رائعة، كلها يفيض رقة وعذوبة، في إطار فلسفي، وروحاني، قد لا يضاهيه غيره.

وسوف نقرأ معًا احدي نورايات السهروردي، وهي بعنوان «وارحمتا للعاشقين»:

أبدًا تحن إليكم الأرواح ووصالكم رُحانُها والراحُ
وقلوبُ أهلٍ ودادكم تشنّاقكمُ وإلي بهاء جسمالكم تترتاحُ
وارحمتنا للماشقين تحمّلوا ثقل المحبة والهوى فضّاحُ

* * *

أهل الهوى قسّمان: قسم منهمو كتسموا، وقسمٌ بالمحبة باحوا
فالباحثون يسرهم شربوا الهوى صِرْفًا فهزهموا الغرام فباحوا
والكتمون لسرهم شربوا الهوى ممزوجةً فحَمَنَهمو الاقداحُ

* * *

بالسر إن ياحوا تباحُ دماؤهم وكذا دماء البائحين تُباحُ
وإذا همو كتّموا تحدّث عنهمو عند الوشاة المدمعُ السّفاحُ
ويدت شواهدُ للسّقام عليهمو فيها لمشكل أمرهم إيضاحُ
خُفض الجناحُ لكم، وليس عليكمو للصبّ في خُفضِ الجناحِ جُناحُ
فإلي لفاكم نفسهُ مرتاحةُ وإلي رضاكم طرفُهُ طماحُ
عودو النور الوصل من غسق الدجي فالهجر ليل والوصال صباح

* * *

صافاهمو فصفوا له، فقلوبهم في نورها المشكاة والمصباح
وتتسموا فالوقت طاب بقربكم راق الشراب وراق الأقداح
ياصح ليس علي المحب ملامة إن لاح في أفق الصباح صباح

* * *

لانسب للعشاق ان غلب الهوي
كتمانهم، فنما الغرام، فباحوا
سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها
لما دروا أن السسماح رباح
ودعاهم داعي افحقات دعوة
فغدوا بها مستأنسين وراحوا

* * *

ركبوا علي سفن الوفا، ودموعهم
بحر، وشدة شوقهم ملاح
والله ما طلبوا الوقوف ببابه
حتى دعوا، وأتاهموا المفتاح
لايظربون لغير ذكر حبيبهم
أبداء، فكل زمانهم أفراح

* * *

حضرنا وقد غابت شواهد ذاتهم
فتسكتوا لما رأوه وصاحوا
أفناهمو عنهم كشفت لهم
حجب البقا فتلاشت الأرواح
فتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم
ان التشببه بالكرام فلاح

* * *

أيامنا بلقائكم أفراح
وجميع أيام الملاح ملاح
قل للمحب إذا تهتك في الهوي
ان التهتك في الغرام مباح
واخلع عذارك لاتبال بعاذل
واخلع عذارك لاتبال بعاذل

* * *

أهل المحبة حين طاب شرابهم
باعوا النفوس لحبهم وارتاحوا
شربوا كؤوس الحب في حان الصفا
فتمسكوا سكرها بها الأرواح
بالانكسار تحملوا في حبه
فبدا عليهم من رضاه سماع

* * *

وأنا لهم من فضله الفتح	خلع الحبيب عليه خلع الرضا
فشداهم من عطره فواح	ملا الحبيب قلوبهم من نوره
وتزول عند لقاءهم الأتراح	تحبي الحبيب ذكرهم وينورهم
ومحبهم، ويحبهم تراتح	كل القلوب لهم تحن تشوقا

* * *

الوسيلة..



شربت بكاسات الغرام سلافة
وصرت أنا الساقى لمن كان حاضرا
بها انتعشت روحي وجسمي ومهجتي
أدير عليهم كرة بمد كرة
« عبد القادر الجيلانى »

الامام محيي الدين عبدالقادر الجيلاني أحد الذين نالوا مكانة رفيعة في تاريخ التصوف، ووضعوا قواعد طريقتهم الصوفية، التي نشرها أتباعه بعد وفاته في بغداد سنة ٥٦١هـ ولم يكن الامام الجيلاني شاعرا بالمعنى الدقيق للكلمة، وإنما كان - كما يرى بعض المؤرخين - الشعر عنده أداة تناسب التعبير عن المعاني الصوفية.

كما أن الإمام الجيلاني الذي ولد في «جيلان» وراء طبرستان، سنة ٤٧١هـ وعاش ومات في بغداد ولم تعرف له أية دواوين مطبوعة، ولا مخطوطة، وإنما بضعة قصائد متفرقة هنا وهناك، قام مشكورا بجمعها الأستاذ الجليل يوسف زيدان في ديوان كبير إختار له اسم «ديوان الجيلاني».

وفي شعر الجيلاني الحنبلي المذهب الذي عمل بالتدريس والإفتاء، نجد حقائق التصوف وقد إختبأت بين حروف الكلمات، ويشار إليها تلويحا وتلميحاً لنفس الأسباب، التي جعلت شعر الصوفية رمزياً.

ومن أهم قصائد ديوان الجيلاني رائعته المعروفة باسم «الوسيلة»، وتقع في ٤٨ بيتاً، وهي تعبير - كما يقول الباحث الجليل «يوسف زيدان» الذي قلم بجمعها - عن فرط المحبة وفيضان الوجد، وقد عمد الامام فيها إلى الرموز الصوفية كالخمر والحان والكأس، وغير ذلك من الرموز الحسية، التي طالما أشار بها الصوفية لمعانيهم الدوقية.

وها هي ذى «الوسيلة» بأبياتها التي تمثل أحد روائع الشعر الصوفي:

ولما صفا قلبي وطابت سريرتي	وناد مني صحوي بفتح البصيرة
شهدتُ بأن الله مولاي الولاية	وقد منَّ بالتصريف في كُلِّ حالةٍ
سقاني الهني من كئوس شرابه	فأسكرني حقاً فهمتُ بسكرتي

وحكمني جمع الدُّنَانِ بِمَا حَوِي
وفي حَانَتَا فَادْخَلَ تَرَاكُاسَ دَائِرَا
وكل ملوك العالمين رَعَّيْتَنِي
وما شرب العشاق الا بَقِيَّتَنِي

* * *

رفعت علي من يدعي الحب في الوري
وجالت خيولي في الأراضى جميعها
ودقت لي الريات في الأرض والسما
وشاءُوسُ ملكي سار شرقاً ومغرباً
فمن كان مثلي يدعي فيكم الهوي
بطاولني إن كان يقوي لسطوتي
فقربني المولي وفزتُ بنظرة
وزُقَّتْ لي الكاساتُ من كل وجهة
وأهل السما والأرض تعلم سطوتي
فصرت لأهل الكرب غوثاً ورحمة
بطاولني إن كان يقوي لسطوتي

* * *

أنا كنت في العُلَيَّا بنور محمد
شربت بكاسات الغرام سلافة
وصرت أنا الساقى لمن كان حاضراً
وقفت بباب الله وحدي موحداً
ونوديت يا جيلاني: ادخل الحضرتي
عُطِيتُ اللّو من قبل أهل الحقيقة
وكانت في العُلَيَّا بنور محمد
شربت بكاسات الغرام سلافة
وصرت أنا الساقى لمن كان حاضراً
وقفت بباب الله وحدي موحداً
ونوديت يا جيلاني: ادخل الحضرتي
عُطِيتُ اللّو من قبل أهل الحقيقة

* * *

ذراعي من فوق السموات كُلِّهَا
وأعلم نبت الأرض كم هو نبته
وأعلم علم الله أحصى حروفه
وما قلت هذا القول فخرّاً وإنما
وما قلتُ حتى قيل لي قَبْلُ ولا تَنْخَفُ
ومن تحت بطن الخوت أمددت راحتي
وأعلم رمل الأرض عَسْداً لرملة
وأعلم موج البحر عَسداً لموجة
أني الإذنُ حتى تعرفوا من حقيقتي
فأنت ولي في مقام الولاية
ذراعي من فوق السموات كُلِّهَا
وأعلم نبت الأرض كم هو نبته
وأعلم علم الله أحصى حروفه
وما قلت هذا القول فخرّاً وإنما
وما قلتُ حتى قيل لي قَبْلُ ولا تَنْخَفُ
ومن تحت بطن الخوت أمددت راحتي
وأعلم رمل الأرض عَسْداً لرملة
وأعلم موج البحر عَسداً لموجة
أني الإذنُ حتى تعرفوا من حقيقتي
فأنت ولي في مقام الولاية

* * *

أنا كنت مع نوح أشاهد في الوري
وكننت وإبراهيم ملقي بناره
وكننت مع إسماعيل في الذبح شاهداً
وكننت مع يعقوب في غشسو عينه
وكننت مع ادريس لما ارتقي العلا
بحساراً وطوفاناً علي كف قد رتي
وما برد النيران إلا بدعوتي
وما أنزل المذبح إلا بفتيتي
وما برئت عيناه إلا بتفليتي
وأسكن في الفردوس أحسن جنة

وكننت وموسي في مناجاة ربه
وكننت مع أيوب في زمن البسلا
وكننت مع عيسى وفي المهد ناطقاً
ولي نشأة الحب من قبل آدم
أنا الذاكّر المذكور ذكراً لذاكر
وموسي عصاه من عصاي استمدت
وما برئت بلواه إلا بدعوتي
وأعطيت داوداً حلاوة نغمتي
وسري سري في الكون من قبل نشأتي
أنا الشاكر المشكور شكراً بنعمتي

أنا العاشق المعشوق في كل مضمّر
أنا الواحد الفرد الكبير بذاته
ملكّت بلاد الله شرقاً ومغرباً
وقالوا: فانت القطب - قلت مشاهداً
وناظر ما في اللوح من كل آية
أنا السامع المسموع في كل نغمة
أنا الواصف الموصوف - علم الطريقة
وان شئت أفنيت الأنام بلحظة
وتال كتاب الله في كل ساعة
وما قد رأيت من شهود بمقلتي

فمن كان يهوانا بجي لمحلنا
فلا عالم إلا بعلمي عالم
ويدخل حمي السادات يلق الغنمة
ولا يسالك إلا بفرضي وسنتي

ولا جامعٌ إلا ولي فيه ركعةٌ
ولولا رسولُ اللهِ بالعهدِ سابقٌ
مُرِيدِي لكَ البشري تكون علي الوفا
مريدِي تمسك بي وكن بي واثقًا
وكن يا مريدِي حافظًا لعهودنا
وإن شحتُ الميزانُ كنتُ أنا لها
حوائجكم مُقضيةً - غير أنني
وأوصيكمو كسر النفوس فإنها
ومن حدثته نفسه بتكبرٍ
ومن كان في حالاته متواضعًا

مريضة الأجفأ..

وقسفا بي علي الطلول قليلا
نتسبساكي، بل أبك مما دهاني
الهوي راشقي بغير سهام
الهسوي قساتلي بغير سنان
« ابن عربي »

هذا هو شيخ الصوفية الأكبر بلا منازع. انه أيضا الفيلسوف الصوفي الأول، وأكثر أعلام الصوفية اثارة للجدل في عصره، وماتلته من عصور. انه أبوبكر محمد بن علي، وشهرته محيي الدين قال فيه محبوبه: انه القطب والعارف بالله والولي، وقال فيه أعداؤه: انه الزنديق والمشرك.

وينحدر هذا القطب الصوفي الكبير من قبيلة حاتم الطائي، واسمه «المرسي»، حيث كانت ولادته بـ«مرسية» ببلاد الأندلس سنة ٦٠ هـ، وأيضاً عرف هناك باسم «ابن سراقه»، أما في الشرق فقد أعطوه اسم «ابن عربي» بدون أداة التعريف تمييزاً له عن القاضي أبي بكر ابن العربي المتوفي سنة ٥٤٣ هـ.

وقد عاش ابن عربي بأفكاره، ومواقفه، وفلسفته، ومذهبه، حياة حافلة كانت تثير غيرة خصومه وجلبت عليه الكثير من العداوات، والخصومات، إلي حد إتهامه ذات مرة «بالكفر والاحاد» أثناء اقامته بمصر واصدار حكم عليه بالموت إلا أنه نجا من القتل باعجوبة!

ولابن عربي مؤلفات أربعمائة قد لا يفوقها شهرة أي من مؤلفات الصوفية الأخرى، وأشهر هذه المؤلفات موسوعته الكبرى في التصوف التي أطلق عليها اسم «الفتوحات المكية»، ويليهما في الأهمية كتاب «فصوص الحكم»، وهو الذي ألب عليه الفقهاء، وأشهرهم الامام ابن تيمية، وهناك أيضاً كتابه «التفسير الصوفي للقرآن».

ولم يكن ابن عربي الذي استقر نهاية حياته في دمشق حتي توفي ودفن بسفح جبل «قاسيون»، مجرد قطب من أقطاب الصوفية، وإنما كان رائداً من رواد مدرستهم الشعرية، يصلح في سماء الروح، ويغرد في عوالم النفس، وله أشعار كثيرة أعذبها ماجاء في ديوانه «ترجمان الأشواق» لإحدي رائعات الغزل الصوفي.

وفي قصائده ابن عربي مشاهدة صوفية تظل النفس فيها مأخوذة بالجمال الالهي تجلياته في الموجودات، فتحب الله في كل شيء، كما تحب كل شيء من أجل الله،

ويستغرقها الحب لله، فإذا جاءت الغزليات لهند، أو ليلي أو سعاد مثلاً فإنما المقصود هو الله، فهو وحده الجمال الحقيقي الجدير بالحب.

وسوف نعرض هنا لابن عربي قصيدته «مريضة الأجفان» وهي إحدى رائعات شعره الخالد:

مرضي من مريضة الأجفان	عللاني بذنوبها، عللاني
هفت الورق بالرياض وناحت	شجوه هذا الحمام مما شجاني
بأبي طفلة لعنوب تهادي	من بنات الخلد ورين الغواني
طلعت في العيان شمساً، فلما	أفلت أشسرت بأفق جناني

ياطلولاً برامة درامات	كم رأيت من كواعب وحسان
بأبي ثم بي غزال ربيب	يرتعي بين أضلعي في أمان
مأعليه من نارها فتهي نور	هكذا النور مخمد التيران

يا خليلي عرجا بعيناني	لأري رسم دارها بعيناني
فإذا ما بلغت الدار حطاً	وبها صاحبي، فلتبكياني
طال شوقي لطفلة ذات نسر	ونظام ومنبر وبيسان

من بنات الملوك من دار قمر	من أجل البلاد من أضربهان
هي بنت العراق بنت إمامي	وأنا ضللتها سليل يمني
هل رأيتهم ياسادني أو سمعتهم	أن ضللتهم قط يجتمعان

وقفنا بي علي الطلولِ قليلاً نتسبّاكي، بل أبكٍ مما دهاني
الهوي راشقي بغير سهام الهوي قاتلي بغير سنانِ
عرفتاني إذا بكيتُ لديها تُسمداني علي البكا تُسمداني

* * *

وأذكر الي حديثِ هندٍ ولبي وسليّـمـي وزينبٍ وعنانِ
ثم زيدا من حاجرٍ وزرود خبراً عن مراتع الغزلانِ
واندباني بشعرٍ قيسٍ وليلي أكؤساً للهوي بغير بنانِ
والهوي بيننا يسوقُ حديثنا طيباً مطرباً بغير لسانِ
لرأيتم ما يذهبُ العقلُ فيه بمنّ والعراقُ معتنقانِ

* * *

كذب الشاعر الذي قال قبلي وبأحجار عقله قد رماني
« أيها المنكح الثرياً سهيلاً عَمَرَكَ الله كيف يلتقيانِ
هي شاميةٌ إذا ما استهلّت وسُهَيْلٌ إذا استهلَّ يماني

* * *

إلهي..



إلهي ضاع عمري في غرور
وفي لهو وفي لعبٍ يطولُ
إلهي غافرت الزلاتِ يا مَنْ
تعالى، ماله أبداً مثيلُ
« أحمد البدوي »

شاعرنا الصوفي شيخ العرب أبو العباسي السيد
أحمد البدوي القرشي الذي ولد بمدينة فاس بالمغرب سنة
٥٩٦ هـ ، وتوفي في طنطا سنة ٦٧٥ هـ ، صاحب
الطريقة الأحمدية التي كان لها أعظم الأثر في تاريخ
مصر دينيا واجتماعيا واقتصاديا وفكريا.

وقد هاجر السيد أحمد البدوي مع والده وأهله في صغره إلى مكة حيث تلقى علي
يد معلميه القرآن، والعلوم الشرعية، ثم هاجر إلى العراق ثم استقر به المقام في مصر
التي استقبلته أروع استقبال بعد أن بلغت شهرته الآفاق لغزارة علمه وقوة إيمانه، وتقواه،
وعندما استقر في طنطا تحولت بوجوده من قرية صغيرة إلى مدينة كبرى.

ومن أهم الآثار التي تركها السيد البدوي «حزبه» وهو عبارة عن دعاء وإبتهاك إلى الله
وإستعاذة به. وأيضا «أوراده» حيث تخصص الطريقة الأحمدية لكل ليلة وردا، وترتبط
الأوراد بالصلوات الخمس.

ومن آثاره أيضا «الوصايا» وهي مدعاة للتقوي، تحض علي الفضيلة، والإكثار من ذكر
الله والصلاة. وكذلك «الصلوات» وهي تسابيح لله.

إلهي أنت للاحسان أهل	ومنك الجود والفضل الجزيل
إلهي بات قلبي في هموم	وحالي لا يسر به خليل
إلهي تب وجد وارحم عبدا	من الأوزار مدممه ييل
إلهي ثوب جسمي دنسته	ذنوب حملها أبدا ثقليل

* * *

إلهي جُد بعفوك لي فساني	على الأبواب منكسر ذليل
إلهي حُفني باللطف يامن	له الغفران والفيض الجزيل
إلهي خاني جلدي وصبري	وجاء الشيب واقترب الرحيل
إلهي داوني بدواء عفو	به يشفي فؤادي والغليل

* * *

ومن فَعَلَ القَبِيحَ أنا القَتِيلُ	إلهي ذاب قلبي من ذنوبي
والبَسَنِي المَهَابَةَ يا جَلِيلُ	إلهي رَدَّنِي بِرَدَاءِ أَنْسِي
وكن لي ناصراً نَعَمَ الكَفِيلُ	إلهي زَحْزَحِ الْأَسْوَءَ عَنِّي
فمالي غير عَفْوِكَ لي مَقِيلُ	إلهي سَيِّدِي، سَنَدِي وَجَاهِي

* * *

مَمُومٌ شَرَحُهَا أَبَدًا يَطُولُ	إلهي شَتَّتْ جَيْشَ إِصْطِبَارِي
أنا العاصي المَسِي، أنا الذليلُ	إلهي صَبَرْتُ مِنْ وَجْدِي أَنْادِي
وفي لَهْـوٍ وفي لعبٍ يَطُولُ	إلهي ضَاعَ عَمْرِي فِي غُرُورِ
بجودِ منك فضلاً يَسْتَطِيلُ	إلهي طَالَمَا أَنْعَمْتَ مِنَّا

* * *

كَذَلِكَ بَاطِنًا أَنْتَ الْجَلِيلُ	إلهي ظَاهِرًا أَدْعُوكَ رَبِّي
بجَاهِ مُحَمَّدٍ نَعَمَ الْخَلِيلُ	إلهي عَسَّافَنِي مِنْ كُلِّ دَاءٍ
تَعَالِي، مَالَهُ أَبَدًا مَثِيلُ	إلهي غَافِرَ الزَّلَّاتِ يَا مَنْ
أَتَاهُ الْخَيْرُ حَقًّا وَالْقَبُولُ	إلهي فَازَ مِنْ نَادَاكَ رَبِّي

* * *

فَهَاكَ الْعَبْدُ يَدْعُو يَا وَكِيلُ	إلهي قُلْتَ أَدْعُونِي أَجِبْكُمْ
إِذَا مَاضَاقُ بِالْعَاصِي مَقِيلُ	إلهي كَيْفَ حَالِي يَوْمَ حَشْرِ
تَعَالِي، لَا تُمَثِّلُهُ الْعَقُولُ	إلهي لَا إِلَهَ سِوَاكَ رَبِّي
بِهِ جَسَمِي يُلْبِلُهُ النُّحُولُ	إلهي مَسْنِي ضَرْفًا ضَحِي

إلهي نَجِّنِي مِنْ كُلِّ كَرْبٍ وَيُسِّرْ لِي أُمُورِي بِاِكْفَيْلٍ
إلهي هَذَا الْأَوْقَاتُ تَمْضِي بِأَعْمَارٍ لَنَا، وَيَهَا تَزُولُ
إلهي وَالنَّاسُ خَيْرًا، وَأَحْسَنُ خَتَامِي عِنْدَمَا يَأْتِي الرَّسُولُ
إلهي يَا مَسِيحُ أَجِبْ دُعَائِي بَطْنَهُ مِنْ تَسِيرُهُ الْخُمُولُ
فَسَصِلْ عَلَيْهِ رَبِّي كُلُّ وَقْتٍ صَلَاةً لَانْحُسُولُ وَلَا تَزُولُ
وَالصَّبْحُ ذَوِي الْمَعَالِي وَفِي طَيِّ الْكَلَامِ هُمُ الْفَحُولُ

* * *

أطيار الجنان ..

بكنت عيني غداة الدمع دمعاً
وأخسري بالبكا بخلت علينا
فسمعت أُنبت التي بخلت علينا
بأن غمضتها يوم التقينا
« جلال الدين الرومي »

لقد كان الشاعر الصوفي الفارسي جلال الدين الرومي أحد أئمة التصوف، وعالما من الأعلام البارزين في التصوف والوالنور طوعا ويسعدنى بالنوح الذي كان يعد من أكبر علماء عصره أيضا. وقد اختار الامام الرومي، الذي يتصل نسبه بأبي بكر الصديق. رضي الله عنه، التصوف سبيلا في حياته العملية، وإختره فلسفة روحية لفكره، وفنه الشعري الرفيع.

وشعر الرومي الذي عاش في القرن السابع الهجري (٦٠٤ - ٦٧٢ هـ) البناء الذي يستمد عناصره من الانسان، ويتعمق في بحث مشاكله الروحية والعملية، ويحاول أن يرسم له المثل العليا في الفكر والعمل، يعني بالحياة التي يحيهاها البشر، كما يعني بالمصير، الذي يطمحون اليه.

وعلى الرغم من أن الرومي ليس مبدع هذا الاتجاه في التصوف، إلا أنه كان أفصح الألسنة في التعبير عنه، وألمع العقول في إبداع فلسفته، وإبتكار أفكاره.

ويعد كتاب جلال الدين الرومي الشهير «المنثوي» أشهر كتبه على الإطلاق، وأحد عيون التراث الصوفي، وأعظم ما جاءت به قريحة الفرس، حتي عصرنا هذا. ورغم أنه كتب في أصله بالفارسية إلا أنه نظرا لأهميته ومكانته ومنزلة العظيمة، فقد كثرت حوله الشروح والتراجم في مختلف اللغات.

والمنثوي عبارة عن مجموعة مقطوعات مما يطلق عليه في الأدب الفارسي كلمة «غزل»، وهو مؤلف من ستة أجزاء، وقد خلا شعر جلال الدين كله من المدح للسلطين. ويقول الرومي في مقدمة الكتاب: «المنثوي»: هذا الكتاب أصول أصول الدين، في كشف أسرار الوصول واليقين، وهو فقه الله الأكبر، وشرح الله الأظهر، وبرهان الله الأظهر، مثل نور مشكاة فيها مصباح، يشرق اشراقا أعظم نورا من الاصباح، وهو جنان

انسان، ذو العيون والأغصان.. الأبرار فيه يأكلون ويشربون، والأحرار فيه يفرحون،
ويطربون وهو كنيل مصر شراب الصابرين، وحسرة علي آل فرعون الكافرين».

ويعد شعر جلال الدين الرومي كما هو الحال في قصصه وحكاياته التي وردت في
كتابه «المنثوي» انعكاسا لطريقته في معالجة الأسرار الخلقية، وحل رموز التصوف
الرقية، والإبانة عن الخفايا من الحكم والحظات البالغة.

إن شعر الرومي ما هو إلا تعبير عن الحقائق الصوفية وصورة مجسمة للعشق الإلهي
رسالة العشق من البداية إلى النهاية، وعلي حد تعبيره «لو خلا قلب الانسان من العشق لم
يبق من آدميته، إلا صنم من لحم ودم بدل الحجارة، والشعب الخالي من العشق لا يعدو أن
يكون أكواما من التراب.

ومعظم شعر الرومي باللغة الفارسية اللهم إلا عددا من قصائده الذي نظمها باللغة
العربية، وهي أيضا لا يعوزها الإتقان والجمال اللفظي والروحي، ونذكر منها هذا
الآيات:

بكت عيني غداة الدمع دمعاً	وأخري بالبكا بخلت علينا
فعماتبت التي بخلت علينا	بأن غمضتها يوم التقينا
فديتك، يا ذا الوحي آياته تتري	تفسرها سرّاً وتكني بها جهراً
وانشرت أمواتاً وأحييتهم بها	فديتك ما أدراك بالأمر وما أدري
فعادوا سكارى - في صفاتك - كلهم	وما طعموا إثماً ولا شربوا خمراً
ولكن بريق القرب أفني عقولهم	فسبحان من أرسى وسبحان من أسري
سلام علي قوم تنادي قلوبهم	بألسنة الأسرار: شكرًا له شكرًا
قطوبي لمن أدنى من الجليل دلوّه	وفي الدلو حسن يوسف - قال: يا بشرًا !
يطالع في شمعشاع وجهه يوسف	حقائق أسرار يحيط بها خبرا
تجلي عليه الغيب وأندك عقله	كما اندك ذاك الطور استهدم الصخر
فظل غريق العشق روحاً مجسماً	ونوراً عظيمًا لم يدر دونه ستر

وهكذا يناسب شعر الرومي في حلاوة وطلاوة، وتناغم وإنسجام، حاملاً معه فكره، ومواقفه، وإيمانه وعقيدته، وفلسفته الصوفية التي تركز على الإنسان.

وسوف نقدم هنا قصيدة ابن الرومي الرائعة «أطيار الجنان»، والتي يطلق عليها أيضاً «قصر عمر»، ويتناول فيها حياة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، شارحاً من خلالها فلسفته الصوفية ونصائحه الروحية، وأفكاره النورانية:

عبرة حارت لمعناها العقولُ	عن رسولِ الرومِ في أرضِ الرسولِ
جاء بطوي البید سعيًا والحضر	يسأل الأحياء عن قصرِ عمر
أين قصر ضم خير المالكين	والهدي والطهر والنور المبين
قصره لاشك مرقسوع البناء	أنصفوا لو شيدوه في السماء
قال بعضُ الناس: يا ضيفَ العربِ	قصره فسوقُ الدراري والذهب

* * *

لا تراه في الملا عين البصر	بل تراه في الملا عين الفكر
في سماء المجد مرفوع المنار	ركنه زهدٌ وذلٌ وانكسارٌ
التأخي فيه والمدل بناء	ومباني الناس غش ورياء
كل من أخلق عينييه هواه	فهو في الظلمة حاشا أن يراه
متزل الأرواح صدقٌ ووفاء	منزل الأجسام لونٌ وطلاء

* * *

مال قلبي بات بالشكوي ينوح	إن قسومي حالهم من قسوم نوح
أسد لوا جهلاً علي النور الحجابا	بل أصموا السمع واستغشوا ثيابا
إن نار الحق في قلب الحسود	حرمئنه ظل جنات الخلود

ومضي الرومي في شوق عظيم يسأل العابر عنه والمقيم
فأهاج الشوق منه والهيام صوت أعرابية بين الخيام

تحت ذاك النخل في حصن حصين حي مولانا «أمير المؤمنين»
قد تخلي عن جوادٍ ومحتاج ينشد الكنز المرجي في البقاع
قال: يا سببحانه رب الوجود أين ذاك القصر أو أين الجنود؟
لم أكن من قبل أخشي قيصيراً لا، ولا سطوة أساد الشري
فلماذا أوهن الخوف جناحي من أمير نام في غير سلاح؟

أحـصـون يا إلهي وقلاع تنسوا ري خلف هاتيك الرقاع
من يخف سلطان ذي العرش المجيد خافه كل قريب وبعيد
وبخسوف الله فاز المؤمنون حيث لا خوف ولا هم يحزنون
ملك العرب جميعاً والعجم نائم في غير جندٍ أو حشم
عبرة تروي لجيل بعد جيل نام ظل الله في ظل النخيل

وصحبا الخطاب من بعد المنام مثل صحو الشمس من بعد الغمام
أقبل الضيف وأهداه السلام وسلام الود يتلوه الكلام
سأل الخطاب ذا الجاه العظيم عن صفات المبدع البر الرحيم

تسكن الأرواحُ أجسادَ الأنام وهي نورٌ كيف تحييا في الظلام
قال مسبوحُ إله الملكوت فاطر الأكوان قد سي النعموت

أسكن الأرواحَ أو كسارَ الصور فاستجابت حين ناداها القدرُ
هذا الأرواحَ أطيَّارَ الجنان فارقت أوطانها للاستبحان
هي كسالعطر طوته الزهيرات وهي كالفكر حوته الكلمات
إنما الألفاظُ نطق ورسوم والمعاني روح هاتيك الرسوم
هبطت من وقتها من لزمان وثوت في أرضها من لامكان

عالمُ الغيب له السر المصون أمره في خلقه كن فيكون
كلم الورد بسر فاتسم عن أريج علم الطير النغم
وهو أيضا قال سرا للحجر فجلا منه عقيقا للنظر
وهو قد أفضي بسر للسحاب فارتوت من فيضه حمر الهضاب
عندما أوحى بسر للتراب صار انساقا له الكون استجاب
ذلك العذب الفرات الهاطل في فم الحسيات سم قاتل
ليس يحبسو جوهر العلم النقاء غير أصداف قلوب الأولياء
جدد الخبز حياء ونماء حينما أصبح للحي غذاء
ومتى أذن للبحر السحاب صار بحرا موجه طامي العباب

سقاني محبوبي..

تجلي لي المحبوبُ في كل وجهةٍ
فشاهدتهُ في كل معني وصورةٍ
وخطابني مني بكشفٍ سرائري
فقال أتدري من أنقلتُ منيستي
« إبراهيم الدسوقي »

هو العارف بالله سيدي إبراهيم الدسوقي (١٣٣) —
١٧٦هـ) ينتهي نسبه إلى الإمام علي ابن أبي طالب كرم
الله وجهه. وهو من أجلاء مشايخ مصر وطريقته
«البرهامية» تنتشر في مصر وسوريا وتركيا والحجاز
واليمن وحضرموت، ومنها فروع كثيرة كالشرنوبية
والشهاوية، والسعيدية الشرنوبية.

وللدسوقي كلام كثير علي لسان أهل الطريق منشور في كتبه القيمة، وأهمها
«الجواهر» المعروف باسم «جوهرة الدسوقي».

وهناك ترجمة مطولة للشعراني يقول فيها: ان الدسوقي من نسل الحسين، وتفقه علي
مذهب الإمام الشافعي، ثم إقتفى آثار الصوفية، وجلس في مرتبة الشيوخ، وحمل الراية
البيضاء، وعاش من العمر ثلاثة وأربعين سنة، لم يغفل خلالها عن مجاهدة النفس
والهوي والشيطان.

أما مذهب الدسوقي الذي دفن بمدينة دسوق، ولا يزال مسجده يقصده الآلاف حتي
يومنا هذا فقد اختصه العارف بالله نفسه في العبارة التالية:

«من عرف الله وعبدته فقد أدرك الشريعة والحقيقة فأحكموا الحقيقة والشريعة
ولانفرطوا إن أردتم أن يقتدي بكم، ولم يكن اسم الحقيقة إلا لأنها تحقق الأمور
بالأعمال، ومن بحر الشريعة تنتج الحقائق، والشريعة هي الشجرة والحقيقة هي الثمرة،
والشريعة أصل والحقيقة فرع، والشريعة تجمع كل العلوم المشروعة، والحقيقة تجمع كل
العلوم الخفية».

وللدسوقي أشعار رائعة في الحب الالهي المقضي إلي الفناء، وشهود الوحدة، وإن
كان يقترب قليلا من ابن الفارض، إلا أنه ربما يكون أكثر شفافية، وتلقائية، ورقة،
وعذوبة. وماهي ذى قصيدة الدسوقي التورانية «سقاني محبوبي»:

تجلي لي المحبوبُ في كل وجهةٍ
وخاطبني مني بكشفٍ سرّاني
فأنت منائي بل أنا أنت دائماً
فشاهدته في كل معني وصورةٍ
فقال أتدري من أنا قلتُ منيتي
إذا كنتَ أنتَ اليومَ عينَ حقيقتي

فقال كذلك الأمر لكنه إذا
فأوصلت ذاتي بانحسارٍ بذاته
فصبرت فناءً في بقاءٍ مؤبدٍ
تعمّنت الأشياءُ كنتَ كنسختي
بغير حلّولٍ بل بتحقيقٍ نسبتي
لذاتٍ بديمومةٍ سرمديةٍ

وييني عني فأصبحت سائلاً
وأنظر في مرآة ذاتي مشاهداً
فأغدو وأمري بين أمرين واقفاً
لذاتي عن ذاتي لشغلي بغيبتي
لذاتي بذاتي وهي ضايةٌ بغيبتي
علومي تمحوني ووهمي مثبتتي

خبّأتُ له في جنة القلب منزلاً
وما شهدت عيني سوي عين ذاتها
بذاتي تقوم الذات في كل ذروةٍ
ترفع عن دعسٍ وهندٍ وعلوةٍ
وإن سـواها لا يلم بفكرتي
أجددُ فيها حلةً بعد حلةٍ

سقاني محبوبٍ بكأس المحبةِ
ولاح لنا نور الجلالةِ لو أضأ
وكنت أنا الساقى لمن كان حاضراً
فتنهتُ عن العشاقِ سكرًا بخلوتي
لصمّ الجبالِ الرساياتِ لدُكَّتِ
أطوفُ عليهم كَرَّةً بعد كَرَّةٍ

وناد مني سكرًا بحكمةٍ
وأن رسول الله شينخي وقد وتي

وعاهدني عهداً حفظتُ لعهدِهِ وعشتُ وثيقاً صادقاً بمحبِنِي
وحكمني في سائر الأرض كُلِّهَا وفي الجنِّ والأشباحِ والمردِيَةِ

وفي أرضِ صينِ الصينِ والشرقِ كُلِّهَا لأقصى بلادِ الله صَحَّتْ ولايتِي
أنا الحرفُ لا أَقرأ لكلِّ مناظِرٍ وكلُّ الوريِّ من أمرِ ربِّي رعيَّتِي
وكم عالمٌ قد جاءنا وهو منكِرٌ فصارَ بفضلِ الله من أهلِ خرقَتِي

وما قلتُ هذا القولَ فخراً وإنما أتى الإذنُ كي لا يجهلونَ طريقَتِي
غنتُ عن الدنيا بفيضِ عطائه وأيُّ عطاياهم يداني عطيتِنِي؟
وصرتُ علي بُعدِ المسافاتِ واصلاً لأدني دُنُو في إرتفاعي لغايَتِي

فوجه الحبيبِ الحقِّ مشرقَ وجهتي ونورُ الحبيبِ الحقِّ ساطعَ قبلي
وفي القلبِ أشواقٌ يترجعُ فيضُها عن الألقِ السامي إلي قُدُسِ حضرةِ
شهدتُ وشاهدنا، وطابت نفوسنا وقد لدَّ لي ذليُّ إليه وخشيتِي

أحنُّ علي ذلٍّ، وأهوي علي هدي وأسري علي علمٍ لأنوارِ طلعةِ
رضيتُ به حتي دخلتَ رياضَه فسأنعمُ بها من روضةِ أيِّ روضةِ
وما لذة العشاقِ إلا يقينُهُم بشملِ جميعِ بعدِ طولِ تشتتِ
وأغسلُ قلبي من سواك، ولم أجِدْ لنفسي إلا نورَ ذاتك بغيتِي
تعاليتُ بالعطفِ الكريمِ، رعايةِ فسباركتُ زلاتِي وأمَّنتُ روعَتِي

تعشقت نور الله..

إذا قيل لي أطلب قلت ربي مطلبي
وإن قيل لي اشرب قلت أنواره كأسي
وكل عهد قد تنكس أصلها
ولكن عهد الله باق بلا طمس
« الشيخ علي عقل »

هذا الشاعر يمثل السمو الروحي في الأدب الصوفي كما يبدو لمن يتتبع مانتظمه من أشعار في الحب الالهي، وما خلفه من ترانيم صوفية، ومدائح نبوية تفيض رقة، وتقطر عذوبة. والشاعر الصوفي الكبير الشيخ علي عقل ليس مجرد أحد أقطاب الشعر الصوفي فقط، وإنما رائد من رواد الاتجاه الحسي في مدرسة الأشعار الصوفية — إذا جاز التعبير — وصاحب صوت شعري شجي، يؤثر القلب، ويستحوذ علي الفؤاد. أنظر اليه يقول:

وان الوردَ يذُبُلُ بعد وقت	وردد الحب كأن به ذُبُولي
وري الناس من مساء ولكن	شراب الحب يذكي من غليلي
أدري الحب حستى لويراني	أخو وجد تشكك في تحولي
وبي نازلوا سنقضي لظاها	لحقر وجدته وحذا سبيلي
ولي بالوجد سر لا يضاهي	وما أنا في المحبة بالهزِيل

ورغم أن حياة الشيخ علي عقل لم تمتد طويلاً حيث وافته المنية عن أربع وخمسين عاماً فقط (١٨٩٤ - ١٩٤٨م) إلا أنه ترك آثاراً عظيمة تدل علي ما كان له من مكانة وتأثير علي الساحة كأحد علماء عصره في التصوف والعلوم الشرعية.

فقد كان الشيخ علي عقل الذي فقد بصره صغيراً، ووهب حياته لدراسة علوم القرآن والدين، ودرس في الأزهر الشريف، علماً من أعلام عصره، يقصده طلاب العلم من كل صوب، ويتعشقه المريدون، وتنسج حوله مجالس الذكر والانشاد.

ومن أشهر أعمال هذا الصوت الصوفي العذب ديوانه الشعري، الذي أطلق عليه اسم «الالهام»، ويضم بين ضفتيه مانتظمه من قصائد روحية، وترانيم صوفية، ومدائح نبوية.

وسوف نورد هنا قصيدة «تعشقت نورالله» التي تمثل قمة السمو الروحي في الشعر الصوفي:

قتلتُ هويَ نفسي، فعمشتُ بلا نفسٍ وجافيتُ أنسي، فأنحدرتُ إليّ الأنسِ
ولم أبداً أمري للمباد، فطالما كتمتُ الذي ألقى عن الجنِّ والإنسِ
وأدركتُ بالوجدانِ سرَّ أحبَّتني وعانيتُ آياتِ اليقينِ بلا لبسِ

عمشتُ زمانِي لست أحفل بالوري وكيف، وقلبي هام في مشهدِ القدسِ
وعلمتُ غيري ما أفادَ من الهدى فلم يبقَ ذو فسهمٍ لديّ عليّ طمسِ
إذا وسَّدَ الناسُ القبورَ، فإنني جعلتُ التقى والذكر بين الوري رمسي

ولم أخشَ من بأسٍ ولم أخشَ طاغياً ومن يخشَ ذاتَ الله لم يرَ من بأسٍ
وهل غيرَ ذاتِ الله للنفسِ مطلبٌ حرامٌ سوي الرحمنِ يدخلُ في نفسي
وتوجَّتُ بالقرآنِ نفسي عقيدهُ أصونُ به نفسي من الزيفِ والفسِّ
وما اتخذتُ رُوحِي سوي الله غايةً فنم الهدى للروح والقلب والحسِّ
وإن شربَ الناسُ الطَّلا وتصبَّبوا فسنةُ خلقِ الله في شربها كأسِي

وإن رفعَ المثرونَ عُجباً رؤسهم رفعتُ بذكرِ الله فوق الوري رأسي
وإن جعلوا الشمسَ ابتداءً ليومهم جعلتُ رضا ربِّي وآيته شمسي
وإن غرسوا زرعاً لنيلِ حصاده وإن غرسوا زرعاً لنيلِ حصاده

تعشقتُ نورَ الله وهو بصيرتي وقد وضعَ البهرهان من آية الكرسي
ومذ شاهدتُ رُوحِي جلالك وإرتقتُ تجرَّدتُ عن معناني في عالمِ الحسِّ
أحبَّك ياربي محبةً موقنٍ ومن قوَّةِ الإيمانِ أصبحَ أو أمسي

فؤادي قد أبعدتُ عن مشهد الوري
أطوف علي الأبوابِ قلبي مُسَوِّجٌ
وأعد مني في الحبِّ علمي بقدره
فطهر في لجوئك من ظلمة الرُّجسِ
وليس سوي رحماك للقلب من نطسِ
فليس غرامي فيسه يدرك عن قيسِ

ولم أعشق الدنيا فتلك مجازة
لِقَاوُكُ يارحمنُ عيدي وعُدتي
وبحُرُكُ منه قد لقيتُ جواهري
تهى للأخري وفي فوتها عرُسي
وتُورِكُ غيبي وهو لي في الوري أنسي
بشاطئه سُفني علي لُجَّه غَطسي

وطيبُ الوري ورُسٌ ومسكٌ وعنبرٌ
ولستُ من الدنيا، أميلُ إلي العلا
أمنع أعضائي بذكرك دائماً
وطيبي من محياك أسمى من الوري
فإنَّ علا الدنيا لأصحابه يُنسي
وهل غيرُ ذكر الله يسكنُ في نفسي

وكلُّ رجائي أن أحبك صادقاً
وما فضله وقفُ علي أيِّ عالمٍ
إذا رضي الرحمن عن قلب عبده
إذ الصديقُ في الوجدان مرتبة القُدسِ
وحققك ما حُدَّ العطاء علي جنسِ
جرت مركبُ الأقدار معه علي الينسِ

تخلَّ ولا تحسفلُ بجنٍّ ولا أنسٍ
واقبل علي مولاك بالقلب مخلصاً
وحُذِّلك بالآمان أصدقَ وجهة
وعشُ في هوي الرحمن تسعدُ بالأنسِ
وأسلمُ وسلمُ واتَّجَّسه
وطهر بهما نفساً عن النفي والرجسِ

نَجْرْدُ نَجْدُ مَوْلَاكَ أَكْبَرُ نَاصِرٍ
حَيَاةُ الْوَرِيِّ حُلُوٌّ وَمَرٌّ وَإِنَّمَا
وَمَنْ لَا يَرِي إِلَّا إِلَهَهُ مُعَرَّادُهُ
وَفَوْضُ لَهُ مَسَاكِينُ فِي الْغَدِ وَالْأُنْسِ
حَلَا الْمَرْءُ بِالتَّوْحِيدِ مِنْ رَقَّةِ الْحَسِّ
حَرَامٌ عَلَيْهِ الْخَوْضُ فِي الْعَرْشِ وَالْكَرْسِيِّ

ومن يتمم شوق نوره وجلاله
وانك لو عظمت دينك عالمًا
وكننت علي الاحداث بالله راضيًا
فليس له التشبيب بالبنير والشمس
وعالمت بالحسني وأديت للنفس
سواء عليك الموت أو ساعة العرس

سَمِعْتُ مِنَ الدُّنْيَا بِرَبِّكَ مُحْسِنًا
يَقُولُونَ لِي مَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: مُوَحِّدٌ
إِذَا قِيلَ لِي أَطْلُبْ قُلْتُ رَبِّيَ مُطْلَبِي
وَنَلْتُ مِنَ الْآخِرِي عِطَاءَ بِلَا بَخْسٍ
إِلَيَّ بِهِ يَسْـمَعِي وَلَمْ يَرَمَنْ بِأَسٍ
وَإِنْ قِيلَ لِي أَشْرَبْ قُلْتُ أَنْوَارُهُ كَأْسِي

* * *

وكلُّ عهودٍ قد تنكسُ أصلها
سلوني عن العشاق قد ذقتُ حُبهم
ولكنَّ عهد الله باقٍ بلا طَمَسٍ
واني لهم رأسٌ إذا كان من رأس

وما هم سوي أعضاء جسمي وبزتي
وما حيلتي إلا انكساري في الحمي
وخلو الهوي عندي لقاء أحبتي
أصافحهم ما شئت لكن بلا لس
وإن إنكسار القلب يكشف عن قدسي
ومرّ الهوي عندي وفي هجرهم نفسي

وَأَعْرِفْ رَحْمَانِي وَأَدْرِكْ عَفْوَهُ وَأَنْهَضْ مَعْتَرَا وَمَا أَنَا بِالْمُنْثِي
وَأَنَّ حَبَالَ الْوَجْدِ تَرْبِطُ مَسْهَجَتِي وَقَلْبِي بِحُبِّ اللَّهِ يَمَسِّقُ كَالْوَرَسِ
وَلِنْ كُنْتُ فِي سَعْدٍ فَذَلِكَ فَضْلُهُ وَإِنْ لَمْ أَكُنْ مِنْ سَادَةِ الْعَرَبِ وَالْفُرْسِ

فَقُلْ لِلَّذِي يُزْجِي الشَّرَاعَ دَعِ الْكَرِيَّ تَجِدُ سَفْنَ الْإِحْسَانِ تَجْرِي عَلَيَّ الْيَبْسِ
وَسِرُّ مَوْقِنَا أَنْ الْجَابَةَ لِلْهُوِيِّ إِذَا مَادَعَا الدَّاعِي وَلَاتَكُ فِي حَدْسِ
فَكُلُّ الَّذِي تَرَاهُ وَالْكُونُ خَلْقُهُ وَمَا نَفْعُ التَّفْرِيقِ بِالنُّوعِ وَالْجِنْسِ

حَسِبْتُ الْهُوِيَّ سَهْلًا فَخُضْتُ عِبَابَهُ فَطُورًا بِهِ أَطْفَسُ، وَطُورًا بِهِ غَطْسِي
إِلَيَّ أَنْ أَتَتَّنِي مِنْ لَدُنْهِ عَنَائِي وَصَلْتُ بِهَا بَرَّ السَّلَامَةِ وَالْأَنْسِ

فطرة النفس..

والكل أنت بمعنى لاخفاء به
والنور بحجب به كالماء في اللبن
والعبد محتجب في عز مالكة
دقت معارفه في الدهر والزمن

« أبو العباس المرسي »

المرسى أبو العباس أحد أعلام التصوف فى عصره ،
وأحد الذين تركوا أثراً كبيراً بعد وفاتهم. فى مرديهم،
وتلامذتهم وخاصة فى الاسكندرية حيث أقام معظم
سنى عمره. والإمام العارف بالـ شهاب الدين أبو العباس
أحمد بن عمر الخزرى الأنصارى المرسى البلسى. ولد
فى مرسية ببلاد الأندلس. تلك المدينة التى نسب إليها
فسمى "المرسى" فى سنة 111 هـ

وعلى الرغم من أن أبى العباس المرسى قد وفد الى الاسكندرية مع أستاذه ومعلمه
أبى الحسن الشاذلى سنة 642 هـ ، إلا أن فجمه سرعان ما سطع فى سماءها، حتى أصبح
كعبة الباحثين عن العلم، وخاصة بعد موت شيخه الشاذلى ، الذى تتلمذ على يديه.

كان المرسى يلقى الدروس ، ويلقن أتباعه ومريديه، مبادئ السلوك القديم، وسبل
الوصول الى رضا الله، وفلسفته فى الزهد، التصوف، متخذاً من جامع العطارين مركزاً
لدعوته، وحلقة لدرسه.

وقد كان المرسى أبو العباس ذا حس مرهف، وعاطفة رقيقة ، وقلب ينبض بذكر الله،
يجمع بين نفاذ البصيرة. وشفافية الرؤية، والنزوع الى الحكمة ، مما ظهر واضحاً جلياً فيما
خلفه من شعر رائع هو احدى الدرر التى تزين جبين الأدب الصوفى.

وسوف نعرض هنا لقصيدة المرسى أبو العباس «فطرة النفس» التى يشرح فيها
فلسفته فى التصوف فى تناغم وانسجام وترباط رائع فى لوحة شعرية جميلة مفعمة
بالحلاوة والركة والعذوبة.

إن كنت سائلنا عن خالص المن
وعن تشبثها بالخط مذ ألفت
وعن بواعثها بالطبع مائلة
وعن حقيقتها في أصل معدنها
وعن تنزيلها في حكمها ولها

وعن تألف ذات النفس بالبدن
أدراكها فغدت تشكو من العطن
تهوى بشهوتها في ظلمة الشجن
لا يتثنى وصفها منها إلى وثن
علم يفرقها في القبح والحسن

فاسمع هديت علومًا عز سالكها
قصداً إلى الحق لا تخفى شواهدا
يا سائلني عن علوم ليس يدركها
لكن بنور علي جامع خمدت
خُذها اليك بحق لست جاهله

على البيان ولا يغرك ذو لسن
قامت حقائقها بالأصل والفن
ذو فكرة بمفهوم لا ولا فطن
له العقول وكل الخلق في ومن
والأمر مطلع والحق قيدي

على الحقيقة خُذ علم الأمور ولا
نفطرة النفس سر لا يحيط به
لكنها برزت بالحكم قائمة
وكي يقال عبيد قائمون بما

تحجبك صورتها في عالم الوطن
عقل تقيد بالأوهام والدرن
حنى تألفها السكان بالسكن
ألقي من الأمر قبل الخلق والمحن

والنفس بين نزول في عوالمها
والروح بين ترق في معارجها
من الحجاب دنت أنوارها فبدت
مثالها في العلاء مرة معدنها

كآدم وله حواء في قرن
وهي المواقف للتمعريف والمن
نورا تنزل بين الماء والدمن
الطافها خفية كالسر في العلن

زيتونة زيتها نورٌ لصاحبها قامتُ حقائقها بالأصلِ والقُنِ
ونار دعوتهَا ماءٌ لشاربيها مُدَّتْ هدايتها في الكونِ والكُنِ
والكل أنت بمعنى لاخفاء به والنور يحجب به كالماءِ في اللبنِ
والعبدُ محتجبٌ في عزِّ مالِكه دقت مسمارُ فسه في الدهرِ والزمنِ

* * *

بحار الدهوى..



يا من به علقت روى فقد تلفت
وجدا فصصرت رهينا تحت أهوائى
أبكى على شىء جنى من فسرقتى وطنى
طوعا ويسعدنى بالنوح أهدائى
« الحلاج »

نحن هنا بصدد الحديث عن شاعر صوفي آخر بلغت شهرته الآفاق في الشرق والغرب، انه الحسين بن منصور الحلاج . صاحب المؤسسة المشهورة في تاريخ الفكر والتصوف باسم "مأساة الحلاج".

وقد ولد الحجاج ببلاد فارس سنة ٢٤٤ هـ ، واختلف الناس في تسميته بالحلاج، بعضهم نسب ذلك إلى أبيه الذي كان يعمل بصناعة الحلج، وآخرون يقولون: إنه سمي كذلك لأنه كان يكشف الناس بما في قلوبهم ، فأطلقوا عليه «حلاج الأسرار».

ورغم أن الحلاج، كان يطوف البلاد ينشر بالإسلام، ويعلم الناس طريقته، وكان يحاول هداية الانسانية كلها، عن طريق الاسلام الا أن نهايته كانت مأساوية بصورة مفرقة.

كان الحلاج بمجرد أن استقر به المقام في بغداد، ينزل الى الناس يعظهم، يهديهم، وكان يلقي دعواه للمهدايا شعرا فيسحر الالباب.

ولما ضاف رجال الدولة بنفوذ الحجاج، وصيحاته ونداءاته، ودعواته الاصلاحية، وخافوا أن يوقظ همة الناس، اتهموه بإدعاء الألوهية، والتزندق ، وشكوه الى الخليفة «المقتدر» فأمر بالقبض عليه.

واقنادوا الحلاج الى بغداد وناظر العلماء وتناولوا عليه، ونفى ادعاء الألوهية، وذكر أنه ليس الا عبدا لله يؤمن به ويرسله، ولكنه يدعو الى الحق وينشد الخير للمسلمين ولا يقر الظلم، وتبرأ من الشهود الذين استلذعواهم، واستعاذ بالله من الدعوى، وهاجت الجماهير المحتشدة خارج المحكمة، واستمر الحلاج متحفظا عليه مدة تسع سنوات الى أن صدر أمر بإعدامه.

وقبل أن يضرب السياف عنقه كانت آخر كلمة له: «حسب الواجد أفراد الواحد له» فسمع بهذه الكلمة أحد من المشايخ الا ورق له، ثم ضربوا عنقه، ولم يبق ببغداد الا من

شهد قتله، وصبوا على الجسد النفط وأشعلا فيه النار ثم حملوا الرماد على رأس منارة لتدروه الريح، ، وكان ذلك في سنة ٣٠٩ هـ ، ونصبوا الرأس يومين على الجسر ثم طيف به في خراسان.

وللحلاج كتب كثيرة تزيد على ٤٨ كتابا معظمها أحرق أو مذك، أو استولى عليه خصومه وأعداؤه، ولم يبق منها جميعا سوى «طاسين الأزل».

أما شعر الحلاج فقد بقى محفوظا في قلوب أحبائه، مستقرا في صدورهم، ولم يستطع أحد أن يتخلص منه ككتبه، فقد كان الحلاج شاعرا روحيا ليس له مثيل، يلقي الشعر فيسحر الألباب.

وسوف نقدم هنا أحلى ما كتب الحلاج من شعر في مواضيع مختلفة، وفي أحداث مختلفة من حياته، وسنبداً بأحلى ما كتبه في وصف موعد حب، ثم أشعار أخرى من أروع ما كتب في الحب الالهي والتصوف:

لى حبيب أزور في الخلوات	حاضر غائب عن اللحظات
ما تراني أصغى اليه يسرى	كى أعى ما يقول من كلمات
كلمات من غير شكل ولا نقط	ولا مثل نغمة الأصوات
فكأنى مخاطب كنت إياه	علي خاطري، بذاتي لذاتي
حاضر غائب قريب بعيد	وهو لم تحسوه رسم الصافات
هو أدنى من الضمير الى الوهم	وأخفى من لائح الخطرات



ومن أعجب الأشياء ظبي مبرقع	يشير بعناب ويومى بأجفان
ومرعاؤه ما بين الترائب والحشا	ويا عجباً من روضة وسط نيران
لقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فمرعى لنزلاتٍ ودير لرهبان

وَيَسِّرْ لَنَا اسْوَدَّ فِي بَشَرِ هِنْدٍ وَأَخْتِهَا
أَدِينُ بَدِينِ الْحَبِ أُنَى تَوَجَّهَتْ
وَالْوَحُ تُورَاةُ وَمَصْحَفُ قُرْآنٍ
رَكَائِبُهُ فَالْحَبُ دِينِي وَإِيمَانِي
وَقَيْسُ لَيْلَى ثُمَّ سَى وَغِيْلَانِ

يا سر سر يدق حتى
وظاهراً باطناً نجلى
ان اعتذارى اليك جهل
يا جملة لكل لست غيرى
أدنوا فيبدعنى خوفي فيقلبنى
فكيفه أصنع فى حب فيقتلنى
قالوا تداو به منه فقلت لهم
فحسبى لمولاي أضناني وأسقمنى

❖ ❖ ❖

وقال الخلاج وهم يقطعونه عضواً عضواً:	اقـتـلـونـي يا ائـمـمـاتـي
ان من قـتـلـي حـيـاتـي	ومـاتـي فـي حـيـاتـي
وحـيـاتـي فـي مـاتـي	أنا عند مـخـوـذاتـي
من أجل المـكـرمـات	ويـقـتـلـني فـي صـفـاتـي
من قـبـيـح السـيـئات	فـاقـتـلـونـي واحـرقـونـي
بعضامي الفـسـساتـات	

ثم مروا برفقاتي في القصور الدارسات
تجدوا سر حبيبي في طوايا الباقيات

والله ما طلعت شمسٌ ولا غربت
ولا جلستُ الى قومٍ احدهم
ولا ذكرتك محزونًا ولا فرحًا
ولا هممت بشرب الماء من عطش
ولو قدرت على الاتيان جئكمو
ويا فتى الحق أن غنيت لى طربًا
مالي وللناس كم يلحوننا سقمها
الا وحبك مقرون بأنفاسي
الا وانت حديثي بين جلاسي
والا أنت بقلبي بين وسواسي
الا رأيت خيالاً منك في الكاس
سعيًا على الوجه أو مشيًا على الراس
فغن وارحمنا من قلبك القاسي
ديني لنفسي ودين الناس للناس

لبيك لبيك يا سرئي ونجواني
أدعوك بل أنت تدعوني إليك
يا عين عين وجودي يا ملى همي
يا كل كلى ويا سمعى ويا بصرى
يا من به علقت روى فقد تلفت
أبكى على شجنى من فرقنى وطنى
لبيك لبيك يا قصدى ومعنائى
فهل ناديت أم ناجيت إياي
يا منطقي وعبارائى وإعياي
يا جملتى وتباعيضى وأجزائى
وجدًا فصرت رهينًا تحت أهوائى
طوعًا ويسعدنى بالنوح أعدائى

ما زلت أطفو فى بحار الهوى برفقنى الموج وأنحط

فتارةً برفعى موجهًا	وتارةً أهوى وأنغطُ
حتى إذا صيرنى فى الهوى	إلى مكانٍ مسالٍ شطُ
ناديتُ يا من لم أبحُ بسرهِ	ولم أخنه فى الهوى قطُ
تقيك نفسى السوء من حاكم	ما كان هذا بيننا شرطُ

* * *

تباركت مشيتك يا قصدى ومرادى	يا ذات وجودى وغاية رغبتى
يا حديدنى وإيمانى ورمزى	يا جميمى وعنصرى وأجزائى

* * *

تجاسرت فكاشفتنى	لك لما غلب الصبرُ
وما أحسن فى مثلى	لك أن ينتهك السرُ
وان عَنَّفَنى الناسُ	فسفى وجهك لى عذرُ
كأن البدرَ محتاجُ	الى وجهك يا بدرُ

* * *

وحُرمة الود الذى لم يكن	يطمع فى السساده الدهرُ
ما نالنى عند هجوم البلا	بأسٌ ولا مسننى الضرُ
ما قُدلى عضوٌ ولا مفصلُ	ما قُدلى عضوٌ ولا مفصلُ

* * *

ندبى غير منسوب	إلى شىء من الحـيـفِ
دعائى ثم حبيبائى	فعل الضيف بالضيف

فلما دارت الكأسُ دعاءً بالنطع والسيفِ
كذا من يشرب الراح مع النشربين في الصيفِ

أنا سر الحق ما الحق أنا بل أنا حق ففارق بيننا
أنا عين الله في الأشياء فهل ظاهر في الكون إلا عيننا
سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لاهوته الشاقبِ
ثم بدا خلقه ظاهرًا في صورة الأكل الشاربِ
حتى لقد عاينه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجبِ

يا موضع الناظر من ناظري ويا مكان السر من خاطري
يا جملة الكل التي كلها أحب من بعض ومن سسائري

الحب ما دام مكتومًا على خطر وغاية الأمن أن تدنو من الحذرِ
وأطيب الحب ما تم الحديث به كالنار لم تؤت نفعًا وهي في الحجرِ

كيفية السبيل؟!..

فنحن كدود القز يحصرنا الذي
صنعنا بدفع الحصر سجنًا لنا منا
فكم واقف أردى وكم سائر هدى
وكم حكمية أبدى وكم مملق أغن
« الششتری »

كان من الأمراء وأولاد الأمراء، فصار من الفقراء وأولاد الفقراء.. هكذا كان يطلق على الشيخ علي بن عبد الله النميري الملقب بالششتري نسبة الى مسقط رأسه قرية "ششتر" بوادي "آش" بالأندلس ولعل السر وراء هذه العبارة التي كان يشار بها الى الششتري (١١٠ - ١١٨هـ) هو نشأته في أسرة عظيمة الثراء والجاه والنفوذ نظراً لانتسابها الى أمراء البلاد، ثم تحوله برغبته عن حياة الدعة والنعيم الى حياة الزهد والتصوف.

وقد بدأ الششتري الذي حفظ القرآن في صغره ثم درس الفقه، حياته تاجراً يجمع بين التجارة والدين في بلاد شرقاً وغرباً وظل على هذا النحو حتى حضر حلقة ذكر لاتباع «أبي مدين» الصوفي المشهور، ولزم مجلس محيي الدين بن سراقه تلميذ «السهروردي»، وأخذ عنه التصوف.

ولكن أكثر ما أثر في الششتري وأحدث تحولاً جذرياً في حياته، وجعله يتحول الى التصوف بكل جوارحه وحواسه، ويصبح واحداً من أهم أئمة التصوف في المغرب هو التقائه بأحد أعلام الصوفية الكبار في عصر المعروف به «ابن سبعين».

ويصف الششتري معلمه ابن سبعين الذي التقى به بعد أن أصبح وزيراً وعالماً في بعض قصائده بأنه «مغناطيس النفوس» و«أكسير الذات»، والحقيقة أن ظهور ابن سبعين في محيط الششتري أحدث انقلاباً في حياته الروحية. فقد طبق ابن سبعين القاعدة الصوفية الخاصة بضرورة تخليص نفوس المريدين من الغرور والتكبر، وهو ما يعرف عند الصوفية بـ «كسر حدة النفس».

وقد طاف الششتري بلداً كثيرة حتي وصل مصر واعتكف زمناً بالجامع الأزهر، وتعرف الى الشاذلية، وبلغ إعجابه بها، وإعجاب أصحابها به، الى حد أن بعض المؤرخين ينظرون اليه كأحد أتباع هذه الطريقة.

وقد ترك الششتري الذى عاش بمصر بقية حياته ، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة أثناء مروره بمنطقة قريبة من دمياط، فنقله بعض مريديه الى دمياط ليدفن بها، ديوانا يضم عددا من القصائد والموشحات الى جانب بعض الرسائل الصوفية.

وشعر الششتري فى غاية العذوبة وتواشيعه فى غاية الحسن، وأزجاله فى غاية الملاحه، وترى فى سائر ما نظم من شعر الرموز الصوفية التعارف عليها. انظر اليه كيف يرى حقيقة «الخمر» التى يتحدث عنها الصوفية:

تنبه قد بدت شمسُ العُقارِ وقد غلب الشعاعُ على النهارِ
سلافاً قد صفتُ قدماً وراقت أدراها بالصفتار وبالكبارِ
فما عَصرتُ وما جُعِلتُ بدنٌ وما سُبكتُ زجاجتها بنارِ

ويروى أن الششتري قبل وصوله مصر مر بطرابلس حيث أعجب الناس بعلومه، وخاصة فى الفقه والسنة، وعرضوا عليه البقاء، وتولى القضاء، ولكنه رفض مؤثرا حياة التقشف والزهد، وعندما لاموه، وتعتوه بالجنون أنشد يقول:

رَضِيَ المُتَسِيمُ فى الهوى بجنونه خلَّوهُ يَفْنَى عَمَمَرِهِ بْفُنُونِهِ
لا تَعْلِلُوهُ فليس ينفع عذلكم ليس السلُّو عن الهوى من دينه
قَسَمًا بِن ذُكْرَ العقيق لأجله قَسَمَ المُحِبُّ بِحُبِّهِ وبيمينه
مالى سواكم غبير أنى ثائبٌ عن فساترات الحب أو تلوينه
مالى إذا هتف الحمام بأيكته أبداً أحنُّ لشجوه وشجونه

والى جانب شعره العمودى ، كان للششتري أزجاله المشهورة، والتى لا يزال يتغنى بها المنشدون فى حلقات الذكر، وخاصة فى المغرب العربى، ومن أشهر أزجاله تلك التى يستهلها قائلا:

شــــويخ من أرض مكناس في وسط الأســـــواق يُغَنَّى

إيش على من الناس وإيش على الناس مِنى

ويعتبر الششتري أول من استخدم الزجل في التصوف. ولقد بلغت شهرة الششتري في الأزجال الصوفية الى الدرجة التي جعلت ابن تيمية يطلق عليه «صاحب الأزجال» وقد اعتمدت «الششترية» كطريقة أقرب الى التصوف السني على اعتمادها على السماع والموشحات التي كان يؤلفها الششتري.

أرى طالباً منا الزيادة لا الحُسنى بفكر رمى سهماً فعدى به عُدنا
وطالبنا مطلوبنا من وجودنا نغيب به عنا لدى الصعق إذ عنا
تركنا حظوظاً من حضيض لحوظنا من المقصد الأقصى الى المطلب الأسنى
ولم نلف كُنه الكون الا توهماً وليس بشيء ثابت هكذا ألفينا
نرفض السوى فرض علينا لأننا بملة محو الشرك والشك قد دنا
ولكنه كيف السبيل لرفضه ورفضه المرفوض نحن ومسا كنا

فيا قائلأ بالوصل والوقفى التى حجب بها أسمع وأرعى مثلما بنا
تقيدت بالأوهام لما تداخلت عليك ونور العقل أورتك السجنا
وهمت بأنوار فهمنا أصولها ومتبعها من أين كان فما همنا
وقد تتحجب الأنوار للعبد مثلما تُقيد من اظلام نفس حوت ضيغنا
وأى وصالٍ فى القضية يدعى وأكمل من فى الناس لم يدع الأنا

ولو كان سرُّ الله يدرك هكذا لقال لنا الجمهور ها نحن ما خبنا
لكم دونه من فتنة وبليّة وكم مهمة من قبل ذلك قد جَبنا
فلا تلتفت فى السير غيراً وكل ما سوى الله غير فائخذ ذكره حصنا

وكل مقام لا تقم فيه الله حجاب فجد السير واستجد العونا

ومهما ترى كل المراتب تجتلى عليك فحل عنها فمن مثلها حلنا
وقل ليس لى فى غير ذاتك مطلب فلا صورة تجلى ولا طرفة تجنى
وسر نحو اعلام اليمين فأنها سبيل بها يمن فلا تترك اليمنا
أمامك هول فاستمع لو صيبنى عقال من العقل الذى منه قد تبنا

أباد الورى بالمشكلات وقبيلهم بأوامر قد أهلك الجن والبنا
محجنا قطع الحجا وهو حجنا وحجنا تلوه باء بهسا تهنأ
يبطننا عند الصمود لأنه يود لو أنا للصعيد قد أخلدنا

تلوح لنا الأطوار منه ثلاثة كسراء ومرئى ورؤية ما قلنا
ويُصمر عبدا عند طور بقائه ويرجع مولى بالفنا وهو لا يفنى
فتحن كدود القز يحصرنا الذى صنعنا بدفع الحصر سخنا لنا منا
فكم واقف أرذى وكم سائر هدى وكم حكمة أبدى وكم مُسلق أغنى

شكوى وجواب شكوى..

لقد ذهب الوفاء فلا وفاء
وكيف ينال عهدي الظالمينا
إذا الإيمان ضاع فلا أمان
ولا ديننا لمن لم يحسب دينه
« محمد اقبال »

عندما مات الفيلسوف الشاعر المسلم محمد اقبال،
الذي وهب عقله وقلبه للمسلمين والبشر جميعا. فقد
الاسلام والانسانية جمعاء عالما روحيا ظل - طيلة
حياته - يحاول أن ينشئ للناس نشأة أخرى، ويسن لهم
في الحياة سنة أخرى.

لقد كان محمد اقبال الذي قال : كل كلام يصدر عن القلب يترك أثره في القلوب،
صوت الانسانية المعذبة في كل مكان، المتحدث باسم معاناتها، المدافع عن عذاباتها،
الحامل لهمومها، المتاصر لقضاياها، والحصن الذي يقىها الهجمات التتريّة، التي تحاول
هدم القيم، واقتلاع المبادئ، من جذورها، دون وازع من رحمة أو ضمير وأنظر اليه يقول:

المؤمنون على عنايتهم	سنة ربهم يتوكلون
لا خوف يفرزهم ولا	هم في الحوادث يحزنون
لو مر أضعفهم على	فرعون بجثث الرؤوسا
لأراك في الأفصاح	رونأ وفي الإيمان موسى

أتى رأيت الخوف في الـ	سديا عدوا للعمل
هو مطفى نور الرجاء	وسالب كنز الأمل
يرمي الارادة بالتزلزل	والعزيمة بالخسوف
ومن احتواه الخوف لا	يجني من الروض الثمر

المؤمن الوثاب تمظ	صمه من الهول السكينه
والخائف الهيب يفرق وهو	في ظل السيف
تلقياه عند شيبابه	هرمنا قد انحطت هواه
وتعثر قدمها قبل	الخطو وارتعشت يداه
في السلم قبل الحرب	ملوب الشجاعه حائر

الصبر عنه نافـز والـلب منه طائـر

أعداؤكم يخشون سيـ
ومرامهم أن تسرعوا
حتى تروا نظراتهم
وهناك يقطفونكم
ف يقينكم قبل السيوف
بالخوف من قبل الختوف
مثل الخناجر في الصدور
من أرضكم قطف الزهور

الحقـد والكذب الصرا
واليسـأس والجبن المذ
تلك الرذائل في شـمـو
لولا المخاوف ما سمـع
ح وكل مكـر أو دهـاء
ل وكل غش والتـواء
ب الأرض أبواب السفـاء
بنا باسمها تحت السماء

الشرك يصنع من خـيـوط
لولاه لم نسـمع بكف
المؤمنون لهم من المولى
بلغوا الكمـال فـهم عن الـ
الخوف أشـراك البـلاء
ر أو نفـساق أو رياء
أمنـان الأوليـاء
سدنيسا العريضة أغنياء

ثقة الكـريم بنفـسـه
والحـزن سم قـاتل
الموت والحـرية الشـمـا
هي خـير ما نحـيا به
تعلوا به فـوق الزمـن
لا تشـربوا سم الحـزن
والشـرف المسكين
وهي الغنى للمـؤمنين
أما المفـضض والمدهـم
سب والمفـوف والنضـيد

فلقد تركناها لعمد ————— بساد الحطام وللعبيد

كان الدكتور محمد اقبال الذى ولد فى سنة ١٢٩٧ هـ من أسرة «برهمية» الأصل ، اعتنقت الاسلام منذ ثلاثة قرون ، وهاجرت من «كشمير» الى «البنجاب» نموذجاً يحتذى به للمسلمين فى كل زمان ومكان، ولما لا وهو الذى دوس الفلسفة فى «لاهور» على يد السير «توماس ارتفولد»، ثم سافر الى كمبردج بالانجلترا ، ثم «ميونيخ» بألمانيا ، لينل درجة الدكتوراة ، ورغم ذلك تمسك بدينه، ودافع عنه ، وجاهد فى سبيله ، مظهرا بعقلانية، وموضوعية، مزاياه.

وقد كافح اقبال طويلا ضد الاستعمار فى كل مكان، ورفض أن يطلب الاستقلال للهند فقط وتحويل الدعوة الانسانية الى مجرد نداء اقليمى ضيق وعلت صرخته حتى بلغت مشارق الأرض ومغاربها بنحطيم أغلال الاستعمار الانجليزى، ليبقى الاسلام، ويبقى المسلمون فى اطارهم الدينى.

وقد كان اقبال رغم انفتاحه على الغرب من خلال دراسته ورحلاته، واحتكاكه بثقافات أخرى غير الثقافة الاسلامية، الا أنه كان ينزع الى الزهد والتصوف ولكن على طريقته الخاصة، التى تفرد بها - فى رأينا- دون سائر من نزعوا الى حياة الصوفية والزهد.

تعم اننا نرى ان اقبال كان شاعرا صوفيا روحانيا فى طبيعة من تخصصوا فى «المحبة» و«العشق الالهى» ، بل ان ما نظمه اقبال من شعر دينى وربانى ، يندرج تحت لواء «الشعر الصوفى».

ودليتنا على ان اقبال الذى قال : «كل كلام قدسى المنيع فهو ابدا يتجه الى العلا شاعر صوفى رفيع المستوى، بلغ فى هذا المجال منتهى المنتهى ما جاء فى كتابه «وله المشرق والمغرب» الذى قسمه اربعة أبواب، وأورد فى الباب الثالث شعراً صوفياً مزوجاً بفلسفة الحياة، واختار له عنوان «الخمر الباقية» مستخدماً «الخمر» كرمز صوفى.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد حيث يمكننا أن نرى بوضوح نزوع اقبال الى التصوف، في دواوين شعره التي نظمها باللغتين الأردية والفارسية» وخاصة ديوانه «أسرار الذاتية ورموز الذاتية» وياقنى منظوماته التي ضمنها متاح كثيرة من فلسفته وأفكاره .

وقد حاول البعض أن ينسب الى اقبال -زورا وبهتانا - كلاما فيه بعض التقدير للصوفية ، ويحاولون أن يربطوا بين ما جاء فى كتابه «جناح جبريل» من انكاره لبعض البدع كالالتجار بالأضرحة، ومقابر الأولياء، وبعض التجاوزات الخاصة بالموالد، والصوفية ككل.

وسوف ندعم كلامنا هنا بحديث طويل جرى مع اقبال حول الصوفية ونشر باللغة الأردية بمجلة «الطريق» الباكستانية فى شهر اغسطس ١٣٣٥ هـ.

والجدير بالذكر هنا ان اقبال دافع باستماتة عن الصوفية، وعدد مزاياها، وأسهب فى الحديث عما قدمته من أجل الخدمات للإسلام، وأظهارهم محاسن الدين المحمدى.

وسوف أنقل هنا نص الحديث الذى جرت عملية ترجمته ونشر باللغة العربية ضمن بحث قيم ورد فى كتاب «الأعلام الخمسة للشعر الإسلامى» للعالمين الجليلين «مسعود حسن الأعظمى»، و«الصاوى على شعلان، وحققه العالم الجليل الدكتور مصطفى غالب.

س: ماذا أفاد الإسلام من المتصوفة؟

ج: لقد قدم المتصوفة فى الهند أجل الخدمات الى الإسلام، وأظهروا محاسن الدين المحمدى، لا بالسيف ولا الحرب، بل بحسن سياستهم ومكارم أخلاقهم، وكان من أثر ذلك أن أسلم على أيديهم ستون مليوناً من جملة المسلمين فى الهند، وهم سبعون مليوناً (فى عام ١٩١٤) وكل المزايا الانسانية العالية التى تجلت فى الهند كانت بفضل تعليمهم ونشاطهم، فهم الذين علموا الانسان كيف يكون انساناً أولاً، ثم علموه كيف يكون مسلماً بعد ذلك.

س: هل أقادوا السياسة الاسلامية في الهند؟

وهل كان لهؤلاء المتصوفة أثر في سياسة الهند الاسلامية؟

ج: لم يكن من عملهم التدخل فى مشكلات السياسة، لأن رسالتهم تتعلق بتزكية النفس، واصلاح الباطن، وتهذيب النفس الأماره، ولكنهم لم يتخلفوا عن أداء واجبهم حين انحرف بعض السلاطين، فقد قاموا بتصحيحهم وتوجيههم الى الطريق الأقوم بدون تردد ولا خوف.

س : ما هى تعليم التصوف من وجهة الشؤون الدنيوية؟

ج : فى نظرهم كما هو الحق، أن يحقق النجاح والتقدم للدين والدنيا فى قوت واحد، فالاسلام لا يسمح بالرهبانية والعزلة، واهمال الأهل والأولاد، والانقطاع للخلوة فى الصحارى والغابات.

(كيف قبنى مسجدا للمسلمين ان تركت الأرض للمستعمرين)

والتصوف الاسلامى يرى ان الذى يعيش لنفسه فقط، فهو يتبوع جاف، لا ماء فيه ولا خير منه، وقد يسمح بالخلوة والتفرغ للعبادة والتوجه لله، لذوى المواهب الخاصة، من لهم قدم راسخة فى الروحانية وهم أقل من القليل، وعلى أية حال فإن ترك الدنيا والعزوف عن نعم الله فيها، تعد مخالفة للقانون الالهى، لأن الفطرة تقتضى نحو العمران وامتداد النسل البشرى.

س: منذ متى بدأت مواسم هذه الذكريات التى تطلق عليها كلمة

الموالد فى البلاد العربية أو العرس فى شبه القارة الهندية الباكستانية؟

ج : نظرا الى أن الهنادك كانوا يحتفلون بأيام دينية فى مظاهر ومهرجانات تعودوها، فقد نقلت بعض هذه المظاهر فى شكل اسلامي لیسأنس به الهنادك، الذين اعتنقوا الاسلام حديثا.

س : ما هى أهداف هذه الموالد؟

ج : هى ذكريات لمن تقام من أجلهم لابرار واظهار مسزايهم، وآثارهم الدينية والعلمية، ولهذا ينبغى استغلال هذه الذكريات لايضاح تاريخهم، والكشف عن

أمجادهم وأعمالهم، ولكن من المؤسف بأن بعض الناس لا يفتنون الى هذه المقاصد السامية فيجعلونها تسلية ويتدخلونها لهوا ولعبا، فهي عبارة من الأسواق والملاهي والمناظر، وعرض السلع والمنتجات.

س : ولكن ما الذي يفيدنا من طائفة المتصوفة في هذا العصر المتميز بالحركة والجهد والانتاج والعمل الدائب؟

ج : ان هؤلاء المتصوفة لهم حلقات روحية، وأنبياء عديدون، وهم يستطيعون ان يوجهوا أتباعهم ومريديهم نحو الحياة الفاضلة والمشاركة في كل الميادين العملية والمفيدة للمجتمع، وكثيرا ما كانوا مصدرا للنهضة واليقظة للأمة (نذكر مثلاً: في الحروب الصليبية بمصر، كيف قاد الامام أحمد البدوي مريديه، بعد أن دربهم ونظمهم، وشكل منهم جيشا يجمع بين الايمان والعمل، واتجه بهم الى معسكرات الأسرى التي تضم المئات من جنود الشعب المصري فحررهم وفك أسرهم، وشارك بهم وبقية مريديه في الموقعة، حتى جاء نصر الله، وعاد الى صومعته معلما وعابدا، ونقل الى عصرنا القريب فنذكر الامام السنوسي الأكبر، وكيف وقف بجيوشه ضد غزاة الشمال الاقريقي نحو عشرين عاما، حتى اذا مات خلفه الامام البطل الشيخ عمر المختار، ونذكر الزعيم الصوفي الأمير عبدالكريم الخطابي، وهذه مواقفه الجليلة ضد جيوش الاحتلال ، لا تزال ترن في أذهان الناس (أنظر للتفصيل مجلة الشبان المسلمين القاهرية).

س : ما قولك في كرامات الأولياء؟

ج : أعتقد في كرامات الأولياء، فإن النفوس التي وهبها الله قلوبا وأدمغة خالصة، ممن بلغوا الكمال في تزكية النفس، وعلى تعبير البعض بأنهم يستطيعون أن يرجعوا السهم الى القوس بعد انطلاقه، والماء الى ينبوع بعد فيضانه.

س : أترى من المستحسن زيارة القبور ، أو ترى غير ذلك؟

ج : اذا كان هدف الزيارة طلب الحاجات من اصحابها، كما تطلب من الله عز وجل، فاني اخالف هذا كل المخالفة، واعتبر ذلك اثما وجرما كبيرا فاذا كان الهدف هو العبرة

وتذكر الموت، والدعاء لهم، فلا بأس بذلك، بل هو مطلوب، وأرى فوق ذلك أن في زيارة هذا المواطن مما يتحقق به تزكية الباطن.

س : هل نحتاج الى مرشدين أو لا ؟

ج : الانسان يحتاج الى مرشد الذي يوجهه الى الطريق الأقوم، وصاحب القلب النقي يستفيد من هداية المرشد، ممن لهم روح كبيرة، وفيهم حرارة وألم، وكل مريد ترتفع أخالقه وتحسن سيرته وسلوكه، من صحبة المرشدين شريطة أن لا يكونوا تجارا ولا محترفين.

س : لم نجد في الوقت الحاضر أمثال أولئك المرشدين ؟

ج : مرد هذا الى أن مجتمعنا الحاضر قد تعري من مزايا تلك الأزمنة، وأذواقها وعلى سبيل الايضاح نقول: إننا نرى العلماء والمخترعين والعباقرة تمتلئ بهم أوروبا وفيما وراء البحار، بينما لا نجد لدينا الا القليل النادر ، وسبب هذا أن المجتمع هناك يقدر الجهود العلمية والفنية ويفسح المجال أمام ذوى الخبرة ليمارسوا استخدام قدراتهم فيما يرفع من شأنهم بالتشجيع والتقدير ، بينما لا يجد الموهوبون هنا غير اطفاء نور الموهبة، وتعويق سيرهم عدا الحالات، فمثلا بوذا الذي ولد في بيت ملك، وشاهد المجتمع من حلوه نشوان بالرفاية والنعمة، أو مبتلي بالفاقة والعدم، فأحس بذلك وظن أن كل آلام الانسانية، هي آلامه، فاضطربت روحه وترك الملك والدولة، ووقف حياته للإصلاح، والمثل الأعلى في حياة العرب أنهم كانوا أبدا في حروب، ووأد بنات، وكل عيوب الدنيا كانت لديهم فجاء شخص من رب العزة رسولا الذي هو أكبر نموذج ومثال للرحمة، وكان العرب يشعلون الحرب لأسباب تافهة وتستمر الحرب إلي عشرات السنين، وبدل آله واحد كانوا يعبدون الهة عديدة من صنع أيديهم، ويقدمون أشخاصا ويفتخرون بالشراب والمجون، ولا يعرفون للعدل والفضل قانونا، ينظم معيشتهم لأجل هذا بعث النبي الذي كان رحمة للعالمين فجعل هذه المنطقة العربية منطقة يعتر بها مسلمو العالم أجمع، ويذلون أرواحهم فداء لمكة المكرمة والمدينة المنورة.

هكذا كان العالم الروحي المسلم الفيلسوف محمد إقبال الشاعر الصوفي الذي عبر
عن نزعتة إلي التصوف بقصائد رائعة لم يزل يشدو وبها العالم الإسلامي، ويتغني بها
اولئك الذين قد تعلقوا بالحب الالهي، وهاموا به، وبلغوا فيه منتهى المنتهى.

وسوف نقدم هنا أعظم أشعار إقبال، وهما قصيدتان شهيرتان احدهما بعنوان
«شكوي» والاخري «جواب شكوي». وفي القصيدة الأولى يصور اشجائه والآمه
ويتضرع إقبال إلي الله يسأله عمن سبب ما آل اليه المسلمون من ضعف وفرقة وتأخر
بعدها بلغوا في عصور مضت أوج عظمتهم وتقدمهم.

وفي القصيدة الثانية يتخيل إقبال صوتا سماويا يدوي بصيحة الحق جوابا لهذه
الشكوي:

«شكوي»

شكواي أم نجواي في هذا الدجي	ونجومٌ ليلى حسدي أم عودي
أمسيتُ في الماضي أعيشُ كأنما	قطعَ الزمانُ طريقَ أمسي عن غدي
والطير صادحةٌ علي أفنانها	تبكي الربى بأنينها المتجددِ
قد طال تسهيدي وطال تشبُّدُها	ومدامعي كالظلٍ في الغصنِ الندي
فالي متي صمتي كأنني زهرةٌ	خرساء لم ترزقُ براصةً منشدِ

* * *

قيثارتِي ملئتِ بأناتِ الجسوي	لا بد للمكبوت من فيضانِ
صعدت إلي شفتي بلابل مهجتي	ليبينَ عنها منطقي ولساني
أن ماتعديت القناعة والرضا	لكنما هي قصة الأشجانِ
أشكو وفي قلمي التراب والنما	أشكو مصاب الدين للديانِ
يشكو لك اللهم قلبٌ لم يعش	الا لحمد علاك في الأكوانِ

* * *

قد كان هذا الكون قبل وجودنا
والورد في الأكمام مجهول الشذي
بل كانت الأيام قبل وجودنا
لما أطل محمد زكت الربى
وأذاعت الفسرد وس مكنون الذي
روضا وأزهارا بغير شميم
لايرنجي ورد بغير نسيم
ليلاً لظالمها وللمظلوم
واخضر في البستان كل هشم
فإذا الوري في نضرة ونعيم

من قام يهتف باسم ذاتك قبلنا
عبدوا تماثيل الصخور وقدموا
عبدوا الكواكب والنجوم جهالة
هل أعلن التوحيد داع قبلنا
كنا نقدم للسيوف صدورنا
من كان يدعو الواحد القهارا
من دونك الأحجار والأشجارا
لم يبلغوا من هديها أنوارا
ومدي الشعوب إليك والأنظارا
لم نخش يوما غاشماً جبارا

قد كان في اليونان فلسفة وفي الـ
لم تغن عنهم قسوة أو ثروة
وبكل أرض سامري ماكر
والحكمة الأولى جرت وثنية
نحن الذين بنور وحيك أوضحوا
سرومان مدرسة وكان الملك في ساسان
في المال أو في العالم والعرفان
يكفي اليهود مؤنة الشيطان
في الصين أو في الهند أو توران
نهج الهدي ومعالم الايمان

من ذا الذي رفع السيوف ليرفع اسم
كنا جبالا في الجبال وربما
بمعابد الأفرنج كان أذاننا
لم تنس أفريقيا ولا صحراؤها
لك فوق هامات النجوم منارا
سرنا علي موج البحار بحارا
قبل الكنائس يفتح الأمصارا
سجداتنا والأرض تقذف نارا

وكأن ظل السيف ظل حديقة خضراء تنبت حولنا الأزهارا

* * *

لم تحش طافوتا يحاربنا ولو نصب المنايا حولنا أسوارا
ندعو جهارا لا اله سوي الذي صنع الوجود وقدر الأقدارا
ورؤوسنا يارب فسوق أكفنا نرجو ثوابك مغنما وجوارا
كنا نري الأصنام من ذهب فتهدمها ونهدم فوقها الكفارا
لو كان غير المسلمين لحازها كنزاً وصاغ الحلي والدينارا

* * *

كم زلزل الصخر الأشم فما وهي من بأسنا عزم ولا إيمان
لو أن أساد العرين تفزعت لم يلق غير ثباتنا الميدان
وكأن نيران المدافع في صدور المؤمنين الروح والريحان
توحيدك الأعلى جعلنا نقشه نوراً تضيء بصبحه الأزمان
فغدت صدور المؤمنين مصاحفاً في الكون مسطوراً بها القرآن

* * *

من غيرنا هدم التماثيل التي كانت تقدسها جهالات الوري
حتي هوت صور المعابد سجدا لجلال من خلق الوجود صورا
ومن الأهلي حملوا بعزم أكفهم باب المدينة يوم غزوة خيبراً؟
أمن رمي ناراً للجوس فأطفئت وأبان وجه الحق أبلغ نيراً؟
ومن الذي بذل الحياة رخيصة ورأي رضاك أعز شيء فاشترى؟

* * *

نحن الذين استيقظت بأذانهم دنيا الخليفة من تهاويل الكري
نحن الذي إذا دعوا لصلاتهم والحرب تسقي الأرض جاما أحمر
جعلوا الوجوه إلي الحجاز وكبروا في مسمع الروح الأمين فكبرا
محمود مثل أياز^(١) قام كلاهما لك بالخشوع مصلياً مستغفرا
العبيد والمولي علي قدم التقي سجداً لوجهك خاشعين علي الثري



بلغت نهاية كل أرض خيلنا وكأن أبحرها رمال العبيد
في محفل الأكوان كان هلالنا بالنصر أوضح من هلال العبيد
في كل موقعة رفعنا راية للمجد تعلن آية التوحيد
أم البرايا لم تكن من قبلنا إلا عبيداً في أسار عبيد
بلغت بنا الأجيال حرياتها من بعد أصفاد ذل قيود



رحمك رب هل بغير جباهنا صرف السجود بيتك المعمور؟
كانت شغاف قلوبنا لك مصحفاً يحوي جلال كتابك المسطور
إن لم يكن هذا وفاء صادقاً فالخلق في الدنيا بغير شعور
ملا الشموب جناتها وعصاتها من ملحد عات ومن مغرور
فاذا السحاب جري سقاها غيثاً واختصنا بصواعق التدمير



قد هبت الأصنام من بعد البلي واستيقظت من قبل نفخ الصور

(١) السلطان محمود الغزنوي وأياز خادمه.

والكعبة العليسا تواري أهلها
وقوافل الصحراء ضل حداثها
أنا ما حسدت الكافرين وقد غدوا
بل مسحنتي ألا أري في أمستي
فكانهم موتني لغير نشور
وعدت منازلها ظلال قبور
في أنعم ومساكب وقصور
عملاً تقدمه صدق الحور

لك في البرية حكمة ومشيئة
إن شئت أجريت الصحاري أنهرًا
ما إذا دهي الأسلام في أبنائه
ففسراؤهم فقر ودولة مجدهم
أصيت مذاهبها أولي الألباب
أو شئت فالأنهار موج سراب
حتي أنطوا في محنة وعذاب
في الأرض نهب ثعالب وذئاب
عن ذنبه في الدهر يوم عقاب
عاقبتنا عدلاً فهب لعدونا

عاشوا بشروتنا وعشنا دونهم
الدين يحيى في سعادة أهله
أين الذين بنار حبك أرسلوا الـ
سكبوا الليالي في أنين دموعهم
للموت بين الذل والاملاق
والكأس لا تبقي بغير الساق
سأنوار بين محافل العشاق
وتوضأوا بمدامع الأشواق
تهدي الصبح طلوع الأشواق
والشمس كانت من ضياء وجوههم

كيف انطوت أيامهم وهم الألي
هجروا الديار فأين أزمع ركبهم
يا قلب حسبك لن تلم بطيفهم
نشروا الهدي وعلوا مكان الفرقد
من يهتدي للقوم أو من يقتدي
الأعلي مصباح وجه محمد

فازوا من الدنيا بمجد خالد
يا رب ألهمنا الرشاد فما لنا
ولهم خلود الفوز يوم الموعد
في الكون غيرك من ولي مرشد

ما زال قيس والغرام كمهده
وهضاب نجد في مراعيها المها
والمعشق فياض وأمة أحمد
لو حاولت فوق السماء مكانة
مابالها تلقي الجود عوالمرا
وربوع ليلى في ربيع جمالها
وظباؤها الخفرات ملء جبالها
يتحفز التاريخ لا ستقبالها
رفت علي شمس الضحى بهلالها
وتصدها الأيام عن آمالها

هجر الحبيب رمي الأحبة بالنوي
لم يبق في الأرواح غير بقية
لو قد مللنا المعشق كان سبيلنا
أو نصنع الأصنام ثم نبيعها
أيام سليمان بنا موصولة
وأصابهم بتصرم الأمال
رحمك يا امرأة كل جمال
أن نستكين إلي هوي وضلال
حاشا الموحّد أن يذلّ لمال
وتنقي أدريس في أذان بلال

يا طيب عهد كنت فيه منارنا
وأسرت فيه العاشقين بلمحة
أحرقت فيه قلوبهم بتوقد الإ
لم تبق نحن ولا القلوب كائنات
ان لم ينر وجه الحبيب بوصله
فبعثت نور الحق من نيران
وسقيتهم راحا بغير دنان
يمان لا بتلهب النيران
لم تتحفظ من نار الهوي بدخان
فمكان حزن القلب كل مكان

يا فرحة الأيام حين نرى بها
ويعود محفلنا بحسبك مسفراً
قد هاج حزني أن أرى أعداءنا
ونعالج الأنفاس نحن ونصطلي
أشرق بنورك وأبعث البرق القسدي
روض التجلي وارف الأغصان
كالصبح في اشراقه الفينان
بين الطلا والظل والأحسان
في الفقر حين القوم في بستان
سم بومضة لفراشك الظمان

أشواقنا نحو الحجاز تطلعت
إن الطيور وإن قصصت جناحها
قيثارتني مكبوتة ونشيداً
واللحن في الأوتار يرجو عازفاً
والطور يرتقب التجلي صارخاً
أكبادنا احترقت بأثبات الجوي
والعطر فاض من الخمائل والري
أو ليس من هول القسيامة أن يكون
النمل لا يخشني سليماني إذا
أرشد براهمة الهنود ليرفعوا الإ
كحنين مسترب إلي الأوطان
تسمو بفطرتها إلي الطيران
قدم من صمت ومن كتمان
ليجوح من أسرارهم بممان
بهوي المشوق ولهفة الخيران
ودماؤنا نهر الدموع القاتني
وكأنه شكوي بغيسر لسان
ن الزهر نأما علي البستان
حرس قراء عناية الرحمن
سلام فوق هياكل الأوثان

ما بال أغصان الصنوبر قد نأت
وتعرت الأشجار من حبل الرب
يارب الابلابل لم ينتظر
أحائه بحر جري متلاطم
عنما قماريها بكل مكان
وطيورها فرت إلي الوديان
وحي الربيع ولا صبا نيسان
فكانه الحساكي عن الطوفان

وَقِيلَ هُوَ ابْنُ آدَمَ فِي غَرَرٍ
لَقَدْ سَجَدْتُ مَلَائِكَةُ كَرَامٍ
يُظُنُّ الْعِلْمُ فِي كَيْفٍ وَكَمْ
وَمَلَأَ كَوْوَسِيَّهِ دَمْعٌ وَشَكْوَى
فِي هَذَا لَقَدْ أَبْلَغْتَ شَيْئًا

تَجَاوَزَ قُدْرَهُ دُونَ أَرْعَافٍ
لِهَذَا الْخَلْقِ مِنْ طِينٍ وَمَاءٍ
وَسِرُّ الْعَجْزِ عَنْهُ فِي انْطَوَاءٍ
وَفِي أَنْفَاسِهِ صَوْتُ الرِّجَاءِ
وَإِنْ أَكْثَرْتَ فَمِنْهُ مِنَ الْمَرَاءِ

عَطَايَانَا سَحَابٍ مَرْمَلَاتٍ
وَكُلُّ طَرِيقِنَا نُورٌ وَنُورٌ
وَلَمْ نَجِدْ الْجَوَاهِرَ قَابِلَاتٍ
وَكَانَ تَرَابُ آدَمَ غَيْرَ هَذَا
وَلَوْ صَدَقُوا وَمَا فِي الْأَرْضِ نَهْرٌ

وَلَكِنْ مَا وَجَدْنَا السَّائِلِينَ
وَلَكِنْ مَا رَأَيْنَا السَّالِكِينَ
ضِيَاءَ الْوَحْيِ وَالنُّورِ الْمُبِينِ
وَإِنْ يَكْ أَصْلَهُ مَاءٌ وَطِينًا
لَأَجْرِنَا السَّمَاءَ لَهُمْ عِيُونًا

وَأَخْضَعْنَا لِلْكَهَمِ الثَّرِيَا
وَلَكِنْ الْخُدُوعُ فِي خَيْرِ دِينٍ
تَرَاثُ مُحَمَّدٌ قَدْ أَهْمَلُوهُ
تَوَلَّى هَادِمُوا الْأَصْنَامَ قَدْ مَآ
أَبَاهُمْ كَسَانُ إِبْرَاهِيمَ لَكِنْ

وَشَيْدْنَا النُّجُومَ لَهُمْ حَصُونَا
بَنِي فِي الشَّمْسِ مَلِكِ الْأُولِيَا
فَمَا شَوْأُ فِي الْخَلَائِقِ مَهْمَلِينَا
فَمَعَادُ لَهَا أَوْلَئِكَ بِصُنْعُونَا
أَرَى أَمْثَالَ آزَرَ فِي الْبَنِينَا

وَفِي أَسْلَافِكُمْ كَانَتْ مَزَايَا
تَضُوعُ شَقَائِقُ الصَّحَرَاءِ عَطْرًا

بِكُلِّ فَمٍ لَذَكْرَاهَا نَشِيدُ
بِرِيَاهَا وَتَبْتَئِسَمُ الْوُرُودُ...

فهل بقيت محاسنهم لديكم فيجعل في دلائكم الصدودُ
لقد هاموا بخالفهم فناء فلم يكتب لغيرهم الخلودُ
وكوثر أحمد منكم قريبُ ولكن شوقكم عنه بعيدُ

وكم لاح الصباحُ سناً وبشري وأذنت القماري والطيورُ
وكبرت الخمائل في رباها مصلية فجأوبها الغديرُ
ونوم صباحكم أبداً ثقیلُ كأن الصبح لم يدركه نورُ
وأضحى الصوم في رمضان قيداُ فليس لكم به عزم صبورُ
تمدن مصركم جمع المزاي وليس بغائب الا الضمير

لقد ذهب الوفاء فلا وفاء وكيف ينال مهدي الظالمينا
إذا الايمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحيي ديناً
ومن رضي الحياة بغير دين فقد جعل الفناء لها قريناً
وفي التوحيد للههم اتحادُ ولن تبوا العملا متفرقيناً
تساندت الكواكب فاستقرت ولولا الجاذبية ما بقين

غمدونم في الديار بلا ديار وأنتم كالطيور بلا وكرور
وكل صواعق الدنيا سهام لبس ركم وأنتم في غبرور
أهذا الفقير في علم ومال وأنتم في القطيعة والنفور
ويبع مقابر الأجداد أضحى لدي الأحفاد مدعاة الظهور

سيعجب تاجرو الأصنام قدمًا إذا سمعوا بتجار القبور

مَنْ المتقدمون إلي المعالي
وَمَنْ جبهاتهم أنوارُ يسي
أما كانوا جدودكم الأوالي
وليس لكم من الماضي تراث
ومن يك يومه في العيش يأسا
علي نهج الهداية والصواب
وفي أخلاقهم يتلي كتابي
بناءً للمجد والفن العجائب
سوي شكوي اللغوب والاكتئاب
فما غده سوي يوم العذاب

أتشكو أن تري الأقسوامَ فازوا
مشوا بهدي أوائلكم وجدوا
أبحرهم عامل ورد المعالي
أليس من العادلة أن أرضي
تحلي النور فسوق الطور باق
بمجد لا يراه النائمون
وضيعة من تراث الأولينا
ويسعد بالرقى الخاملونا
يكون حصادها للزارعينا
فهل بقي الكلیم بطور سينا؟

ألم يبعث لأمتكم نبي
ومصحفكم وقيلتكم جميعًا
وفوق الكل رحمن رحيم
فما لنهار الفتنكم تولي
وحسن اللؤلؤ المنكون رهن
يوحى بكم علي نهج الوثام
منار للأخسوة والسلام
إله واحد رب الأنام
وأسميت حيارى في الظلام
بصوغ العقيد في حسن النظام

وكيف تغيرت بكم الليالي
تركتم دين أحمد ثم عدتم
رقي الشعب قد أضحى لديكم
وكيف تقاس أو هام ولغو
أري نارا قد انقلبت رمادا

وكيف تفرقت بكم الأماني
ضحايا للهوي أو للهوان
تقرر صلاحية الزمان
بحكمة منزل السبع المثاني
سوي ظل مريض من دخان

أُري الفقراء عبيادًا نقاة
هم الأبرار في صومٍ وفطرٍ
وليس لكم سوي الفقراء سترٌ
أضلت أغنياءكم الملاحي
وأهلُ الفقر ما زالوا كنوزًا

* 强

أرى التفكير أدركه خمولا
وأصبح وعظكم من غير مسح
وعند الناس فلسفة وفكر
وجلسلة الأذان بكل أرض
متناثر كم علت في كل حي

ولم تبق العزائم في استعمال
ولأنور يُطل من المقام
ولكن أين تلقين (الغزالي)
ولكن أين صـوت من بلال
ومسجدكم من العباد خالي

* * *

فَأَيْنَ أَئِمَّةٍ وَجُنُودٍ صَدَقَ
إِذَا صَنَعُوا فَصَنَعَهُمُ الْمُعَالِي

تَهَابَ شِبَابُ عَزَمِهِمُ الْحَرَابُ
وَإِنْ قَالُوا فَاقُولُهُمُ الصَّوَابُ

مسرّادهم الاله فلا رياءً ونهجهم اليقين فلا ارتيابُ
 لأمنهم وللاوطان عاشوا فليس لم إلي الدنيا طلاب
 كمثل الكأس تبصرها دهاقا وليس لأجلها صنّع الشرابُ

جهاد المؤمنين لهم حياة ألا أن الحياة هي الجهادُ
 عقائدهم سواعد ناطقات وبالأعمال يثبت الاعتقادُ
 وخوف الموت للأحياء قبرٌ وخوف الله للأحرار زادُ
 أرى ميراثهم أضحى لديكم مضاعفا حيث قد ضاع الرشادُ
 وليس لوارث في الخيبر حظٌ إذا لم يحفظ الأثر انحدادُ

لأي مائر القوم اتسببتم؟ لتكتسبوا فخار المسلمينا
 فأين مقامُ ذي النورين منكم ودولة عزة دنيا ودينا
 وفقرٌ علي الأواب هلا ربحتم فيه كنز الفاتحينا
 أقمتم في الذنوب وفي الخطايا وتفتابون حتي الصالحينا
 وهم ستروا عيوب الخلق فضلا وإن كانوا أبر المتقيننا

أريكة قيصر وسرير كسري قد احتمينا بملكهم العميم
 وأنتم تطمحون إلي الثريا فلا عزم ولا قلب سليم
 تضيّمون الأخاء وهم أقاموا صروح أخائهم فوق النجوم
 طلبتم زهرة الدنيا وعاشوا بلا زهر يضرع ولا شميم

وكان لديهم البستان محضاً وهم أصحابُ جناتِ النعيمِ

يعبد الكون قصصهم حديثاً فكهم نزحوا عن الأفكار شوقاً
وبأس شبيبكم أدمي خطاهم هي المدينةُ الحمقاء ألقت
لقد صنعت لهم صنم الملاهي وينشئ من حديثهم الفنونا
إلي التحليق فوق العالمينا فظنوا فبيته بالدين الظنونا
بهم حوّل المذاهب حائرينا لتحجب عنهم الحرم الأمينا

لقد سئم الهوي في البیدِ قيسٌ يحاول أن يباحَ العشقُ حتي
يريد سقور وجه الحسن لما فهذا العهدُ أحرق كل غرسٍ
لقد أفتت صواعقه المغاني ومل من الشكاية والعذابِ
يري ليلاه وهي بلا حجابِ رأي وجهَ الغرام بلا نقابِ
من الماضي وأغلق كل بابِ وعانت في الجبال وفي الهضابِ

هي النارُ الجديدة ليس يلقي خلدوا إيمان إبراهيم تنبت
ويذكسو من دم الشهداء وردٌ ويلمع في سماء الكون لونٌ
فلا تفزع إذا المرجانُ أضحى لها حطبٌ سوي المجد القديم
لكم في النارِ روضات النعيم سني العطر قدسي النسيم
من العتاب مخضوب الأديم عقوقاً للبراعم والكروم

فكم زالت رياضُ من رباهما وكم بادت نخيل في البوادي

ولكن نخلة الإسلام تنمو
ومجدك في حمي الإسلام باق
وأنت يوسف في أي مصر
تسير بك القوافل مسرعات

* * *

ضياءك مشرق في كل أرض
بغت أم التنار فأدر كتها
وأصبح عابد والأصنام قدما
فلا تجزع فهذا العصر ليل
ولا تخش العواصف فيه وانهض

* * *

أعد من مشرق التوحيد نورا
وأنت العطر في روض المعالي
وأنت نسيمه فاحمل ثناه
وأرسل شمعة الإيمان شمسا
وكن في قمة الطوفان موجا

* * *

فباسم محمد شمس البرايا
تلا في الرياض وفي الصحاري
ونبض الكون منه مستمد
ومن مراكش يغزو صدهاء
ومما مشكاة هذا النور الا

* * *

ورفع الذكـر للمختار رفع
فكن إنسان عين الكون وأشهد
بخنجر عزيمك الوثاب لاح
تداؤك في العناصر مستجاب
وعقلك في الخطوب أجل درع
لقدرك نحو غايات الكمال
مقامك عالياً فوق المعالي
علي الأعلام أنوار الهلال
إذا دوي بصوت من بلال
وعشقك خير سيف للنضال

* * *

خلافه هذه الأرض استقرت
وفي تكبيرك القدسي يبدو
فيما من هب للإسلام يدعو
سترفع قدرك الأقدار حتي
وقبل لك احتكم دنيا وأخري
بمجدك وهو للدنيا سماء
صغيراً كل ماضى القضاء
وأيقظ صدق غيرته الوفاء
تشهد أن ساعدك القضاء
وشأنك والخلود كما نشاء

* * *

كل المنى..

أثرت الهدى للمهتدين ولم يكن
من النور في أيديهم عشر معشاري
فقلبي بعفوي منك أحسى بقربه
وغش بيسر منك فقري واعشاري
« ذا النون المصري »

من بين أشهر رجال الصوفية فى الإسلام أبو الفاضل
ثوبان بن إبراهيم ذو النون المصرى، ولد بأخميم من أعماق
صعيد مصر، ويبدو من أيامه أنه كان نوبيا وإن ذا النون
كان عبدا ثم أعتق . وقد قيل إن ذا النون اعتاد أن يطوف
بين الآثار المصرية القديمة يدرس رموزها ويحاول حلها،
وقد درس أيضاً بعض علوم الطب والكيمياء والسحر
ويقال إن ساعدون الصوفى المصرى كان معلمه ورائده
الروحى.

وقد سافر ذو النون إلى مكة ودمشق وزار بعض النساك المقيمين الى الجنوب من
أنطاكيا وفى أثناء هذه الأسفار توصل ذو النون الى التضلع فى التنسك وكبح جماح
النفس.

من بين ما روى عن ذى النون أنه كان ذات مرة مبحرا مع تلامذته فى قارب بالنيل
فاقترب منهم قارب آخر به رهط من المعبدین احتقت تصرفاتهم أتباع ذى النون فطلبوا
إليه أن يدعو الله ضارعاً اليه إغراق أهل القارب ، لكنه اتجه الى ربه قائلاً «يارب لتنعم
على هؤلاء القوم السعداء فى هذه الحياة الدنيا بعيشة مثلها هنيئة فى الحياة الأخرى»،
الأمر الذى اثار دهشة أتباعه.

ثم اقترب القارب الآخر منهم وأبصر من فيه ذا النون فخروا بكيا فى توبه لله.

وعند ذلك قال ذو النون لصحبه «إن المعيشة الرغدة فى الحياة الأخرى هى ثمرة التوبة
فى هذه الحياة، وها أنتم وهم الآن راضون دون حاجة إلى إنزال ضرر بأحد»، وروى
أيضاً أن ذا النون كان مسافرا ذات يوم من القدس إلى مصر فالتقى بامرأة عجوز تحمل
عكازا وترتدى جبة صوفية فسألها من أين جاءت فأجابته «من عند الله» فقال «وأين أنت
ذاهبة» فأجابت «إلى الله» فأخرج عند ذلك عملة ذهبية وقدمها اليها فنادت عليه قائلة «أى
ذا النون انما الرأي الذى كونته عنى إلا ثمرة لتفكير ذكائك القاصر، فأنا أهمل لوجه الله

ولا أقبل شيئاً من أحد سواه. أنا أعبدُه وحده، ولا آخذ شيئاً إلا منه وحده». وولت على أثر قولها في طريقها تاركة ذا النون يتمن في كلماتها.

وتحدث ذو النون عن أسفاره للبحث عن سبل الخلاص طيلة حياته «١٨٠- ٢٤٥هـ) قال: «لقد حصلت في أول أسفاري علما يرضى الخاصة والعامة، وحصلت في ثانيها علما يرضى الخاصة دون العامة وفي ثالث أسفاري حصلت من العلم ما لم ترض به لا الخاصة ولا العامة ففقدت شريداً طريداً. لقد حصلت العلم في المرة الأولى والتوبة وهي مقبلة لدى الخاصة والعامة على حد سواء. وفي المرة الثانية وصلت الي التوكل على الله ومعاملته ومحبته وهي شئون تتقبلها الخاصة ولا تفهمها العامة، وفي المرة الثالثة وصلت الي الحقيقة التي تسمو على العلم والعقل فأعرضاً عنها لم يفهماها.

وقد كان ذو النون مضطهداً من أجل تدريسه الصوفية علانية حتي انه قبض عليه في أواخر أيامه وأرسل به الي بغداد حيث سجن مع السماح لصدقائه الصوفيين بزيارته إلى أن عفى عنه بأمر من الخليفة فعاد الي مصر حيث وافاه الأجل بمدينة الجيزة.

وهكذا، فقد كان ذو النون في أول الأمر متنسكاً متقشفاً، زهد العالم في الوحدة والعزلة حيث تدرب على كبح رغبات نفسه إلى أن تغلب عليها ثم سار عن طريق التوبة والتطهر إلى أن حظى بهبة المعرفة فأصبح في آخر الأمر صوفياً عارفاً بالله، وهو يكاد أن يكون صوفياً تكلم عن المعرفة ووصف المراحل المختلفة التي يجتازها الروح في سبيلها إلى الوصول الي الله والعتور عليه.

ولذي النون أشعار رائعة تعكس رقة عشقه، وقوة إيمانه، منها قصيدته «كل المنى»:

أموتُ وما ماتت إليك صبابتي	ولا رويتُ من صدق حيك أوطاري
منى المنى كل المنى أنت لى منى	وأنت الغنى كل الغنى عند أقصاري

* * *

وأنت مدى سُؤلى وغيابة رغبتي	ومضغُ شكواي ومكنونُ إضماري
تحملَ قلبي فيك مالا أبشهُ	وإن طال سُقْمى فيك أو طال إضراري

* * *

وبين ضلوعي منك ما لولاك قد بدا ولم يبسّدْ باديهِ لأهلي ولا جاري
وبى منك فى الأحشاء داءٌ مخامرٌ فقد هدمنى الركن وأثبت أسرارى

ألست دليلَ الركبِ إن هم تحسبوا ومنقذ من أشفى على جرف هارى
أنرت الهدى للمهتدين ولم يكن من النورِ فى أيديهم عشر معشارى

فقلنى بعفوٍ منك أحسى بقربه وغشّ بيسرٍ منك فقرى وإعسارى

مالى سوارىك..

مالى سوارىك أغلىشتى
وهل سوارىك نصير
ولى إلك شفق
بدر المساء المنير
« أحمد الحلوانى »

الشيخ العلامة أبو عبد الرحيم أحمد بن اسماعيل
الخلواني الشافعي أحد الذين يمثلون السمو الروحي في
الأدب الصوفي. وقد ولد الخلواني في إحدى قرى
محافظة الغربية (رأس الخليج) سنة ١٢٤٩ هـ وحفظ
القرآن صغيراً، ثم سرعان ما اتجه الى دراسة علوم الدين
واللغة، وظل كذلك حتى التحق بالأزهر الشريف حيث
تلقى العلم على يد اعلام عصره كالقصبى والباجورى
والشبراوى.

وقد ترك الخلواني تراثاً شعرياً صوفياً رائعاً ما بين اشعار وابتهالات واذكار صوفية
لطالما تغنى بها المنشدون طيلة حياته، ويعد نماته في سنة ١٣٠٨ هـ.

وسنقدم هنا لأحمد الخلواني ابتهالاً صوفياً شديد الرقة والعذوبة بعنوان «مالي
سواك».

استغفر الله ربى	فيا الله رب غفـور
مما جننا جناني	أو اللسان العـثـور
أو الجوارح منى	فلانها قد تشـور
أو ظاهر ليس يخفى	أو باطن مستـور

* * *

استغفر الله عما	قد قلنته وهو زور
ومن تناس بناس	عمن هو المذـكـور
ومن خـلاف أمـور	أنا بهـا مـامـور
استغفر الله عما	جـرى به المقـدور
من كل أمر مـعـيب	قد كنت فيه أمـور

* * *

لم يرض ربى وقلـبى	بكـتبـه مـسـرور
-------------------	-----------------

إن سـررتُ يوماً إليـه
 وعند أولِ جـزء
 وإن توخيتُ خـيبراً
 وإن تهـممتُ يوماً
 أطيـر حين أسـيرُ
 منه يجىء الأخصـيرُ
 صرفاً فكم أسـتخـيرُ
 إليه جاء القـنـورُ

وللتـنـقـد أـنـوى
 هبـنى تـقـسـدتُ، مـا إذا
 وهبـه غـيـبـر نفـور
 عـدـمتـه من فـؤاد
 فيـعـرضُ التـأخـيرُ
 يُجـدى وقـلـبي نفـورُ
 هل فـيـه ثم حـضـورُ
 عـند الصـلـاة يـطـيرُ

أنـوى فـيـنـهـبُ لـبـى
 أظـلُّ أحـسـبُ فـيـهـا
 كـيـأتـنى بـحـسـبـى
 فـلو تـرأتـى فـيـهـا
 فـفى العـبـادة طـرفـى
 وفـى الذنـوبِ فـؤادى
 وفـى السـلام يـحـورُ
 وما تحـنـوه اللـهـورُ
 مـؤكـلٌ أو أجـبـيرُ
 لـقـلتُ: ذا مـبـهـورُ
 ولو بـصـيرُاً ضـريرُ
 عـلى عـمـاه بـصـيرُ

يا ويلـنا من ذنـوبٍ
 ومن خـطـاي اللـواتى
 وآه مـن كـلِّ إثـمٍ
 ومن مـقـاصـد سوءٍ
 فـجـورُها مـفـجـورُ
 إلى الخـطـى تـسـتـطـيرُ
 عـليه يُطـوى الضـمـيرُ
 جـرى به التـسـمـيرُ

شىءٌ ومن، لـستُ أدري؟
 فـلـذاك شىءٌ كـثـيرُ

أَسْرَى وَطُورُ أُسْـيَرُ	قَبَائِحُ كُنْتُ فِيْـهَـا
مِنْ أَجْلِـهَـا مَسْفُورُ	مَاتَتْ وَعَاشَتْ، فَـقَلْبِي
وَعَمُّـهَـا مَذْخُورُ	سُرَرْتُ مِنْـهَـا زَمَانَا
كَتَبَـيَ الْمَسْـطُورُ	نَسِيتُـهَـا وَدَعَاـهَـا

* * *

إِذَا بَدَا النَّسْـحُ حَرِيرُ	مَـاذَا أَقْبَلُ لِرَبِّي
وَبِالسَّـمَّاحِ جَسَدِيرُ	يَا رَبَّ أَنْتَ رَحِيْمُ
وَأَنْتَ رَبُّ قَسْدِيرُ	يَا رَبَّ أَنْتَ عَزِيزُ
جَسَدَا وَأَنْتَ الْكَبِيرُ	يَا رَبَّ إِنِّي حَقِيرُ

* * *

إِذَا أَسَاءَ الْحَقِيقِيرُ	وَشَأْنُ مَنْ جَلَّ يَغْضَى
مَنْ رِيَّهَ يَا مُجْجِيرُ	وَأَيْنَ تُرْبٌ خَسِيْسُ
عَلَيْكَ بَلْ أَسْتَجْجِيرُ	وَمَا أُرِيدُ احْتَجْجَا جَا
سَوَاهٍ لَيْسَ يُجْجِيرُ	أَجْرُ عَبِيدِكَ يَا مَنْ

* * *

وَهَلْ سَوَاكَ نَصِيرُ	مَالِي سَوَاكَ أَغْنَى
بَدْرُ السَّمَاءِ الْمُنِيرُ	وَلِي إِلَيْكَ شَفِيعُ
إِذَا الْمَسَاءُ تَمُورُ	غَمُوثُ الْأَنْـمَامِ الْمَرْجَى
كَسْرِي، فَإِنِّي كَسِيرُ	بِهِ تَوَسَّلْتُ فَجَا جَبِيرُ
مِمَّا فَـضَّضَ مِنْهُ النُّورُ	وَاسْكُبْ عَلَيْهِ السَّحَايَا

* * *

مجاهدة النفس..

وذلك لأن الناس قد آثروا الهوى
على الحق سرّاً ثم جهراً علاناً
فهذا زمانُ الشرِّ فاحذروا سبيله
فإن سبيل الشرِّ يروى المهاوى
« الأتطاكي »

هذا الصوفي الكبير أبو عبد الله أحمد بن أحمد بن
عاصم الأنطاكي المتوفى سنة ٦٣٩ هـ يطلق عليه
اسم "جاسوس القلب" حيث يدور كبلأمنه دوماً علي
المراقبة والمحاسبة وكبح جماح النفس . والأنطاكي يرى أن
الصوفية هم "أهل الصدق" . ومجالستهم لذلك تكون
بـ "الصدق" . وعلم التصوف - كما يراه - هو "علم
معاملات القلوب" .

ويقول الأنطاكي: «إذا صارت المعاملة إلى القلب استراحت الروح، وعلى نفس
مسئولة فتعهدها بالمحاسبة، وأستح من قبولك من نفسك دعواها الصدق، والحكيم من
نظر بعين القلب، والقلوب تحتاج من أصحاب النفس الحية إلى دوام الرعاية، وإجسام
القلوب يكون بقلّة المخالطة وترك الطلب، ورقتها تستجلب بدوام مجالسة أهل الذكر من
أهل العقول، ونورها يتحصل بدوام الحزن، واستفتاح الحزن يكون بطول الفكر، والتماس
الفكر يكون في مواطن الخلوات.

وعندما نطالع ما تركه لنا الإنطاكي من رائع الشعر، وجميل النظم، نراه يلخص فيه
حياته، ومجاهداته الروحية، وحقيقة تصوفه.
ولعل هذه القصيدة الرائعة والتي يعلم بها مريدوه «زمان الشر»، خير دليل على
ذلك.

ألم ترى أن النفس يرديك شرّها	وأنتك مأخوذ بما كنت ساعيا
فمن ذا يريد اليوم للنفس حكمة	وعلمًا يزيد العقل للصدر شافيا
هلم إلي الآن إن كنت طالبًا	سبيل هدى أو كنت للحق باغيا
فمعدى من الأبناء علم مجرب	فنه بالهيام ومنه سماعيا

* * *

وَكَيْفَ بَدَأَ الْإِسْلَامَ إِذْ كَانَ بِأَدْيَا	أَخْبِرُ أَخْبَارًا تَقَادَمَ عَهْدُهَا
وَكَيْفَ قَوَىٰ إِذْ صَارَ كَالثُوبِ بِأَلْيَا	وَكَيْفَ لَمَّا حَتَّى اسْتَنْتَمَ كَمَالُهُ
يَفِيدُكَ عِلْمًا إِنْ وَعَيْتَ كَلَامِيَا	وَمَنْ بَعْدَ ذَا عِنْدِي مِنَ الْعِلْمِ جَوْهَرُ
عَنِ الْقَلْبِ حَتَّى يَتْرَكَ الْقَلْبَ صَافِيَا	وَعَمَلًا غَزِيرًا جَالِي الرِّينِ وَالصَّدَى

* * *

وَذَاكَ بِالْهَمَامِ مِنْ اللَّهِ مَا ضِيَا	فَأَصْبَحْتُ بِالتَّوْفِيقِ لِلْحَقِّ وَاضِحًا
فَصَارَ غَرِيبًا مَوْحَشَ الْأَهْلِ قَاسِيَا	لَأَنِّي فِي دَهْرٍ تَغْسِرُ بٍ وَصَفِّهِ
وَوَصَفَ دَلَالَاتِ الْعَقُولِ زَمَانِيَا	فَسَاحِوَجٌ مَا كُنَّا إِلَى وَصَفِ دِينِنَا
فَإِنْ كُنْتَ سَاعَا بَدَأَ لِلْقَلْبِ وَاعِيَا	عَجَائِبُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ كِلَيْهِمَا
كَمَا نَدَبَ الْأَمْوَاتِ ذُو الشَّجْوِ شَاجِيَا	فَقَدْ نَدَبَ الْأِسْلَامَ أَحْمَدُ نَدْبُهُ

* * *

يُرَانِي لِلْإِسْلَامِ إِذْ كَانَ بِأَرِيَا	فَأُولَ مَا أَبْدَأَ بِالْحَمْدِ لِلَّذِي
وَلَمْ أَكُ شَيْطَانًا مِنَ الْجِنِّ عَاتِيَا	وَصَيَّرَنِي إِذَا شَاءَ مِنْ نَسْلِ آدَمَ
فَكُنْتُ مَضِلًّا جَا حَادَ الْحَقِّ بَاقِيَا	وَلَا شَاءَ مِنْ إِبْلِيسَ صَيَّرَ مَخْرَجِي
وَإِذَا لَمْ أَكُنْ حَيًّا عَلَى الْأَرْضِ مَا شِيَا	وَلَكِنَّهُ كَانَ بِاللُّطْفِ سَابِقِيَا

* وَعَلَّمَنِي مَا غَابَ عَنْهُ سَوَالِيَا	* وَصَيَّرَنِي مِنْ بَعْدِ فِي دِينِ أَحْمَدَ
فَشَكَرِي لَهُ فِي الشَّاكِرِينَ مُوَازِيَا	وَقَهْمِي نَوْرًا وَحَكْمَةً
وَمَنْ أَجَلَ ذَا قَدْ صَحَّ مِنِّي رَجَائِيَا	فَمَنْ أَجَلَ ذَا أَرْجُو إِذْ كَانَ غَافِرًا

ومن أجل ذا أرجوه إذ لم يكافئني ولكن بلطف منه كان ابتدائيا

* * *

فلا كنت ذا عقل لما قد رجوته
لقد كنتُ ذا خوف وشكوى محاذيا
ولو كنت أرجوه لحسن ضيعة
شكرت فصيح الآن مني حيائيا
فشكوى له إذا صيرت بالحق عالما
وللشر وصافيا وللخير واصيا
ومن بعد ذا وصفى لتفسي وطبعها
ووصفى غيري إذ عرفت ابتدائيا

* * *

فهذا من الأبناء وصف غرائب.
فمن كان وصفى لكان بحاليا
فكيف به إذا كان بالحق عالما
فهيهات لا ينجيه إلا القافيا
وذاك لأن الناس قد آثروا الهوى
على الحق سر ثم جهرا علانيا
فهذا زمان الشر فاحذر سبيله
فإن سبيل الشر يردى الهاويا

* * *

البركة..



كيف ترقى رقبك الأنبياء
يا سماء ما طاولتها سماء
« البوصيري »

البوصيرى هو امام المادحين، وأحد أئمة الصوفية
المعدودين، الذين خلد ذكرهم، وخاصة بسبب افاضته،
وأجادته فى مدح الرسول الأعظم، وتقديمه للعالم
الاسلامى همزته الخالدة "البردة". وقد سمي الامام
الجليل أبو عبداً شرف الدين محمد بن سعيد المخرى
الأصل بالبوصيرى نسبة إلى "بوصيرقوريدس" من قرى
بنى سويف حيث نشأ هناك وأمضى جزءاً من عمره إلى
أن أقام بالاسكندرية آخر حياته حتى مات ودفن فى قبره
الذي شيد عليه مسجده المسمى باسمه.

وقد كان البوصيرى طيلة حياته التي امتدت ما يقرب من تسعين عاماً (٦٠٨ -
٦٩٦هـ) أحد المدافعين عن الاسلام، وأعظم من ردوا علي من افتروا عليه، وخاصة عن
أنكروا نبوة الرسول من غير المسلمين، حيث ناقشهم، وجادلهم وأقام الحجة عليهم،
ويظهر ذلك فى مدائحه النبوية

وتذكر بعض كتب الصوفية ومنها كتاب «طبقات الشاذلية الكبرى» أن البوصيرى،
كان من أصحاب الهمة العالية، كما تذكر أنه تعرف بأهل الصلاح والتقوى والعلم فى
الاسكندرية، وانقطع الي التصوف، وما اليه، ودرس آدابه وأسراره. وأنه سلك على يد
سيدي أبي العباس المرسى وأخذ عنه الحقائق والأسرار.

وسوف نقدم هنا همزية البوصيرى النورانية «البردة» التي لم تزل تمثل درة على جبين
الشعر العربى قاطبة، وأعظم ما كتب فى مدح الرسول الأعظم من قصيد.

وقد اشتهر البوصيرى بهذه القصيدة، وكان قد أصابه الفالج فقطع على نفسه عهداً
لئن شفاه الله أن ينظم قصيدة فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام «خير البرية»، ولذلك
سميت قصيدته «الكواكب الدرية فى مدح خير البرية».

ويقال إن البوصيرى كان قد بدأ فى نظم القصيدة أثناء مرضه، فلما انتهى منها رأى

فى المنام رسول الله ىمز بىده الكرومة على ىجسمه كله فىبراً، ولذلك سمىت القصيدة أىضاً باسم «البردة»، وقد جازاه الرسول بأن خلع علىه بردته، ولذا سمىت كذلك بالبردة.

وقد ذاع صىت هذه القصيدة حتى بلغ الآفاق، وتبارى الناس فى كل زمان ومكان، حتى يومنا هذا فى ذكر مالها من كرامات، حتى صاروا ىنشدونها فى مجالسهم، واختفالاتهم الدينية تشفعاً بالنبي، وطلباً لتفريى كرتهم، حتى سمىت «قصيدة البشداث».

ولهذه القصيدة الرائعة قصة ذكرها الشيخ الحملاوى فى كتابه «طراز البردة». وقد أراد بعض المحبين للبوصيرى أن ىرفعوا من قدر البردة. فنسبوا إليها الأشياء وغالوا فىما نسبوه إلى البوصيرى من كرامات فى البردة، حقيقة أن بعض ما نسب إليها صحيح، ولكن بعضها كان مغالاً فيه ونقتصر هنا على الصحيح وترك ما عداه، ما دامت صحته لم تثبت على الإطلاق.

فالصحيح ما ذكر من قصة الشيخ الحملاوى حين أصىب بخراج فى بطنه استعصى على الأطباء شفاؤه. فأرسل من ىحى عنه على حسابه الخاص وأمره أن ىقرأ البردة أمام قبر الرسول متجهاً له بالشفاء.

وفى هذه الساعة التى قرئت فيه البردة أمام قبر الرسول انفجر الخراج من قلب الشيخ الحملاوى، وخرج الدم بكثرة حتى ملأ الحجرة ثم شفى بعدها.

ولما عاد الحاج من رحلته أخبره أنه قرأها الساعة كذا فى يوم كذا أى نفس الموعد الذى انفجر فيه الخراج وخرج الدم من قلب الشيخ الحملاوى.

ومن الصحيح أىضاً ما روى عن رجل أنه كان ىقرأها وىواظب على قراءتها وأن بعض جيرانه كانوا ىشمون رائحة جميلة تخرج من حجرته أثناء قراءته للبردة ونهب عليهم بين الحين والآخر.

وفىما ىلى رائحة البوصيرى «البردة»، التى ما زالت حديث الناس فى كل مكان من العالم الاسلامى حتى يومنا هذا:

مَزَجْتَ دَمْعًا جَرَى مِنْ مَقْلَةٍ بِدَمٍ
وَأَوْضَى الْبَرْقُ فِي الظُّلُمَاءِ مِنْ إِضْمٍ
وَمَا لِقَلْبِكَ أَنْ قُلْتَ اسْتَفِيقْ يَهُم
مَا بَيْنَ مَنْسَجَمٍ مِنْهُ وَمُضْطَرِمٍ
وَلَا أَرِقتَ لِذِكْرِ الْبَانِ وَالْعَلَمِ
بِهِ عَلَيْكَ عُذُولُ الدَّمْعِ وَالسَّقَمِ
مِثْلَ الْبَهَارِ عَلَى خَدَيْكَ وَالْعَنَمِ
وَالْحُبِّ يَعْتَرِضُ اللَّذَاتِ بِالْأَلَمِ
مَنْى إِلَيْكَ وَلَوْ أَنْصَفْتُ لَمْ تَلَمْ
عَنِ الْوُثْاقِ وَلَا دَانِي بِمُنْحَسِمِ
إِنْ الْحُبَّ عَنْ الْعُذَالِ فِي صَمَمِ
وَالشَّيْبُ أَبْعَدُ فِي نَصَحٍ عَنِ التُّهَمِ

أَمِنْ تَذَكُّرِ حَيْرَانٍ بِذِي سَلَمٍ
أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تَقَاءِ كَاطِمَةٍ
فَمَا لِعَيْنِكَ أَنْ قُلْتَ أَكْفُفَا هَمًّا
أَيَحْسَبُ الصَّبُّ أَنَّ الْحُبَّ مُنْكَتِمٌ
لَوْلَا الْهَوَى لَمْ تُرَقْ دَمْعًا عَلَى طَلَلٍ
فَكَيْفَ تَنْكِرُ حُبًّا بَعْدَمَا شَهِدْتَ
وَأَثَبْتَ الْوَجْدُ خَطِيءَ عِبْرَةٍ وَضَنِيءُ
نَعَمٍ سَرَى طَيْفًا مِنْ أَهْوَى فَأَرْقَنِي
بِالْأَمَى فِي الْهَوَى الْعَذْرَى مَعْدِرَةً
عَدَّتْكَ حَالِي لِأَسْرَى بِمُسْتَنْتَرٍ
مَحْضَتْنِي النَّصَحَ لَكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ
إِنِّي اتَّهَمْتُ نَصِيحَ الشَّيْبِ فِي عَدْلِي

مِنْ جَهْلِهَا بِنَذِيرِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ
ضَيْفٍ أَلَمْ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمِ
كَتَمْتُ سِرًّا بَدَأَ لِي مِنْهُ بِالْكَتَمِ
كَمَا يُرَدُّ جِمَاحُ الْخَيْلِ بِاللُّجَمِ
إِنْ الطَّعَامُ يُقْوَى شَهْوَةَ النَّهَمِ
حُبُّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَقَطَّعَ يَنْقُطُ

فَإِنْ أَمَارَتِي بِالسَّوِّءِ مَا اتَّعَظْتُ
وَلَا أَعَدْتُ مِنَ الْفَعْلِ الْجَمِيلِ قِرَى
لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنِّي مَا أَوْتَسِرُهُ
مَنْ لَمْ يَرُدَّ جِمَاحٌ مِنْ غَوَايَتِهَا
فَلَا تُرْمُ بِالْعَاصِي كَسْرَ شَهْوَتِهَا
وَالنَّفْسُ كَالطُّفْلِ إِنْ تَهْمَلَهُ شَبَّ عَلَى

فأصرف هواها وحاذر أن تولّيَه
وراعِهَا وهى فى الأعمال سائمةٌ
كم حسنت لذة للمرء قاتلةٌ
واخش الدسائس من جوع ومن شبع
واستفرغ الدمع من عين قد امتلأت
وخالف النفس والشيطان وأعصهما
ولا تطع منهما خصمًا ولا حكما
استغفر الله من قول بلا عمل
أمرتك الخير لكن ما أثمرت به
ولا تزودت قبيل الموت نافلةٌ

إِن الهوى ما تولى يصم أو يصم
إِن هي استحلّت المرعى فلا تُسم
من حيث لم يدبر أن السّم فى الدسم
فربّ مخمصة شرّ من التخم
من المحارم والزّم حميّة الندم
وان هما محضاك النصيح فأتهم
فأنت تعرف كيد الخصم والحكم
لقد نسبت به نسلا لذي عقم
وما استقمت فما قولى لك استقم
ولم أصل سوى فرضٍ ولم أصم

* * *

ظلمت سنة من أحيا الظلام الى
وشد من سغب أحشاءه وطوى
وراودته الجبال الشم من ذهب
وأكدت زهده فيهما ضرورته
وكيف تدعو الى الدنيا ضرورة من
محمّد سيد الكونين والثقلين
نبينا الأمر الناهى فلا أحد
هو الحبيب الذى تُرجى شفاعته

أن اشتكت قدماه الضر من ورم
نحت الحجارة كشحاً مشرق الأدم
عن نفسه فأراها أيما شمم
إن الضرورة لا تعد وعلى العصم
لولاه لم تخرج الدنيا من العدم
من والفريقين من حرب ومن عجم
أبر فى قول لا منه ولا نعم
لكل هول من الأهوال مقتحم

دعا إلى الله فالمستمسكون به
 فإق النبيين في خلق وفي خلق
 وكلهم من رسول الله ملتمس
 وواقفون لديه عند حلالهم
 فهذا الذي تم معناه وصورته
 منزلة عن شريك في محاسنه
 دع ما ادعته النصاري في نبيهم
 وأنسب إلى ذاته ما شئت من شرف
 فإن فضل رسول الله ليس له
 لو ناسبت قدره آياته عظما
 لم يتسحنا بما تعيا العقول به
 أعياء الوري فهم مسعناه فليس يرى
 كالشمس تظهر للعينين من بعد
 وكيف يدرك في الدنيا حقيقته
 فمبلغ العلم فيه أنه بشر
 وكل أي أتى الرسل الكرام بها
 فإنه شمس فضلهم كواكبها
 أكسرم بخلق نبي زانه خلق
 كالزهر في ترف والبدر في شرف

مستمسكون بحبل غير منقسم
 ولم يدانوه في علم ولا كسرم
 غرقا من البحر أو رشفا من الديم
 من نقطة العلم أو من شكلة الحكم
 ثم أصطفاه حبسها باري النسم
 فجوهر الحسن فيه غير منقسم
 واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم
 وأنسب إلى قدره ما شئت من عظم
 حد قيسرب عنه ناطق بقم
 أحيا اسمه حين يدعى دأرس الرمم
 حرصا علينا فلم ترتب ولم نهم
 للقرب والبعد فيه غير منفحم
 صغيرة وتكل الطرف من أمم
 قوم نيام تسلاوا عنه بالحلم
 وأنه خير خلق الله كلهم
 فلما إتصلت من نوره بهم
 يظهرون أنوراها للناس في الظلم
 بالحسن مشتمل بالبشر متسم
 والبحر في كسرم والدر في هم

كأنه وهو فردٌ في جلالته
 كأنما اللؤلؤ المكنون في صدف
 لا طيب يعدلُ تريباً ضمَّ أعظمه
 في عسكرٍ حين تعلقاه وفي حشم
 من معدني منطقٍ منه ومبسم
 طوبى لمتشقي منه ولمنشيم

* * *

أبان مـولده عن طيب عنصره
 يوم تفرس فيه الفرس أنهم
 وبات إيوان كسرى وهو منصعج
 والنار خامدة الأنفاس من أسف
 وساء ساوة أن غاضت بحيرتها
 كأنَّ بالنار ما بالماء من بلل
 والجن تهتف والأنوار ساطعة
 عَمُوا وصَمُوا فإعلانُ البشائر لم
 من بعد ما أخبر الأقوامَ كاهنهم
 وبعد ما عاينوا في الأفق من شهيب
 حتى غدا عن طريق الوحي منهزم
 كأنهم هربا أبطال أبرهة
 نبذا به بعد تسبيح يطنهما
 يا طيب مبتدئ منه ومختتم
 قد أُنذروا بحلول البؤس والنقم
 كشمَل أصحاب كسرى غير ملتئم
 عليه والنهر ساهى العين من سدم
 وردَّ وأردها بالغليظ حين ظمى
 حزنأ وبالماء ما بالنار من ضرر
 والحق يُظهرُ من معنى ومن كلم
 نسمع وبارقةُ الأندار لم تُشم
 بأن دينهم المعسوج لم يقم
 منقضة وفق ما في الأرض من صنم
 من الشياطين يقفوا إثرَ منهزم
 أو عسكر بالخصى من راحتيه رُمى
 نَبَذَ السَّبِجَ من أحيساء مُلتقم

* * *

جاءت لدعوته الأشجار ساجدة
 تمشى إليه على ساقٍ بلا قدم

كأنما سطرت سطرًا لما كتبت
 مثلُ الفمَامَةِ أنى سارَ سائرةٌ
 أقسمت بالقمر المنشق ان له
 وما حوى الغار من خير ومن كرم
 فالصدق فى الغار والصدق لم ير ما
 ظنوا الحمامَ وظنوا العنكبوتَ على
 وقاية الله أغنت عن مضاعفة
 ما سامنى الدهر ضيمًا واستجرت به
 ولا التمسست عنى الدارين من يده
 لا تُنكر الرُحَى من رؤياهُ إنَّ له
 وذاك حين بلوغ من نبـوؤته
 تبارك الله ما وحى بمكنسب
 كم أبرأت وصيبًا باللمس راحتته
 وأحيت الستة الشهباء دعـوئـه
 بعارض جـاد أو خلت البطاح بها

دعنى ووصفى آيات له ظهرت
 فسالدر يزداد حسنا وهو منتظم
 فما تطاول آمال المديح الى
 ظهور نار القـرى لبـلا على عـلم
 وليس ينقصُ قدرا غير منتظم
 ما فيه من كرم الأخلاق والشيم

آياتُ حق من الرحمن محدثة
لم تقترن بزمانٍ وهي تخبرنا
دامت لدينا ففاقت كل معجزة
محكماتٌ فما تبقيْنَ من شُبّه
ما حُوريتَ قط إلا عادَ من حرب
ردت بلاغتها دعوى معارضها
لها معانٍ كموج البحر في مددٍ
فما تعد ولا تحصى عجائبها
فُرت بها عين قاريها فقلت له
ان تَلْهَا خيفةً من حر نار لظى
كأنها الحوضُ تبيضُ الوجوه به
وكالصراط وكالميزان معدلة
لا تعجبين لحسود راح ينكرها
قد تنكر العينُ ضوءَ الشمس من رمدٍ

* * *

يا خير من يَمّم العافون ساحته
ومن هو الآية الكبرى لمعتبرٍ
سريت من حرم ليلا الي حرم
ويت ترقى الى أن نلت منزلةً
سميما وفوق متون الأبنق الرّسم
ومن هو النعمة العظمى لمفتنم
كما سرى البدر في داج من الظلم
من قباب قوسين لم تدرك ولم ترم

وقدمتك جميع الأنبياء بها
وأنت تخترق السبع الطباق بهم
حتى إذا لم تدع شأواً لمستبق
خففت كل مقام بالاضافة اذ
كيما تفوز بوصل أي مستتر
فحزت كل فخار غير مشترك
وجل مقدار ما وليت من رتب
بشرى لنا معشر الاسلام ان لنا
لما دعا الله داعينا لطاعته

راعت قلوب العدا أنباء بعثته
ما زال يلقيهم في كل معترك
ودوا الفرار فكادوا يفسطون به
تمضى الليالى ولا يدرون عديتها
كأنما الدين ضيف حل ساحتهم
يجر بحر خميس فوق سابعة
من كل متدب لله محتسب
حتى غدت ملة الاسلام وهى بهم
مكفولة أبدا منهم بخير أب

والرسل تقديم مخدم على خدم
في موكب كنت فيه صاحب العلم
من الدنوا ولا مرقى لمستتر
نوديت بالرفع مثل المفرد العلم
عن العيون وسر مكتتم
وجزت كل مقام غير مزدحم
وعز ادراك ما أوليت من نعم
من العناية ركنا غير منهدم
بأكرم الرسل كنا أكرم الأمم

كنبأة أجفلت غفلاً من الغنم
حتى حكوا بالقنا لحماً على وضم
أشلاء شالت مع العقبان والرحم
ما لم تكن من لىالى الأشهر الحرم
بكل قهرم الي لحم العدا قهرم
يرمى بموج من الأبطال ملتطم
يسطو بمستأصل للكفر مصطلم
من بعد غربتها موصولة الرحم
وخير بعل فلم تيتم ولم تتم

هم الجبالُ فسَلَّ عنهم مصادمَهُمْ
 وسل حنيئًا وسل بدركًا وسل أحدًا
 المُصدِرِ البيض حُمْرًا بعدما وردت
 والكاتبين بِسَمْنِ الخَطِّ ما تركت
 شاكى السلاح لهم سِيمًا تميزهم
 تهدي اليك رياحُ النصرِ نشرهم
 كأنهم في ظهور الخيل نبتُ رُبًا
 طارت قلوب العدا من بأسهم فرقًا
 ومن تكن برسول الله نصرتُه
 ولن ترى من ولى غير متصيرِ
 أحل أمنه فى حُرُز ملتته
 كم جدلت كلماتُ الله من جدلِ
 كفاك بالعلم فى الأمى معجزةُ

مساذا رأي منهم فى كل مصطدم
 فصول حتف لهم أدهى من الوخم
 من العدا كل مسودٌ من اللمم
 أقلامهم حرفَ جنمٍ غير متعجم
 والورد يمتاز بالسيمما من السلم
 فتحسب الزهر فى الأكمام كل كمى
 من شدة الحزم لا من شدة الحزم
 فما تفرق بين البهم والبهم
 إن تلقه الأسدُ فى آجامها تجم
 به ولا من عدو غبير منقصم
 كالليث حل مع الأشبال فى أجَم
 فيه وكم خصم البرهان من خصم
 فى الجاهلية والتأديب فى اليثم

* * *

خدمته بمدح أستقيل به
 اذ قلدانى ما تخشى عواقبه
 أطعت غي الصبا فى الحالتين وما
 فى خسارة نفس فى تجارتها
 ومن بيع أجلا منه بعاجله

ذنوب عمر مضى فى الشعر والخدم
 كأننى بهمما هدى من النعم
 حصلت الا على الأثام والندم
 لم تشتتر الدين بالدنيا ولم تسم
 بين له الغبن فى بيع وفى سلم

إِنْ آتٍ ذَنْبًا فَمَا عَهْدِي بِمُتَّقِصٍ
فَإِنْ لِي ذِمَّةٌ مِنْهُ بِتَسْمِيْنِي
إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَعَادِي أَخْذًا يَدِي
حَاشَاءُ أَنْ يَحْرِمَ الرَّاجِي مَكَارِمَهُ
وَمَنْذُ أَلْزَمْتُ أَفْكَارِي مَسَدَانِحَهُ
وَلَنْ يَفْسُوتَ الْغَنَى مِنْهُ بَدَأُ تَرَبَّتْ
وَلَمْ أَرِدْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا الَّتِي اقْتَطِفَتْ

مِنَ النَّبِيِّ وَلَا حَاسِبِي بِمُنْصَرِمٍ
مُحَمَّدًا وَهُوَ أَوْفَى الْخَلْقِ بِإِلْدَمِ
فَضْلًا وَإِلَّا فَسَقُلْ يَا زَلَّةَ الْقَدَمِ
أَوْ يَرْجِعِ الْجَارُ مِنْهُ غَيْرَ مُحْتَرَمٍ
وَجِدَّتْهُ لِحِلَاصِي خَيْرٌ مَلْتَزِمٍ
إِنْ الْحَبِيسَا يُنْبِتُ الْأَزْهَارَ فِي الْأَكَمِ
يَدَا زَهْيِيرٍ بِمَا أَثْنَى عَلَى هَرَمِ

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي مِنَ الْوُدِّ بِهِ
وَلَنْ يَضْيقَ رَسُولُ اللَّهِ جَاهُكَ بِي
فَإِنْ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضُرَّتْهَا
يَا نَفْسَ لَا تَقْنَطِي مِنْ زَلَّةٍ عَظُمَتْ
لَعَلِّي رَحْمَةً رَبِّي حِينَ يَقْسِمُهَا
يَا رَبِّ وَاجْعَلْ رَجَائِي غَيْرَ مَنْعَكِ
وَالْطِفْ بِمَعْبُودِكَ فِي الدَّارَيْنِ إِنْ لَهُ
وَأَذِّنْ لِسَحْبِ صَلَاةٍ مِنْكَ دَائِمَةٍ
مَا رَفَّحَتْ عَذَابَاتِ الْبَيَانِ رِيحُ صَبَا
ثُمَّ الرِّضَا عَنْ أَبِيبَكْرٍ وَعَنْ عَمْرِ
وَالْأَلِّ وَالصَّحْبِ ثُمَّ التَّابِعِينَ فَهُمْ

سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَسَادِثِ الْعَمَمِ
إِذَا الْكَرِيمُ تَحَلَّى بِاسْمِ مُتَتَّقِمِ
وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللُّوْحِ وَالْقَلَمِ
إِنْ الْكِبَائِرُ فِي الْغُفْرَانِ كَاللَّمَمِ
تَأْتِي عَلَى حَسَبِ الْعَصِيَانِ فِي الْقِسْمِ
لَدَيْكَ وَاجْعَلْ حَسَابِي غَيْرَ مَنْعُومِ
صَبِيرًا مَتَى تَدْعُهُ الْأَهْوَالُ يَنْهَزِمِ
عَلَى النَّبِيِّ بِمَنْهَلٍ وَمُنْسَجِمِ
وَأَطْرَبِ الْعَيْسِ حَادِي الْعَيْسِ بِالنَّغَمِ
وَعَنْ عَلِيٍّ وَعَنْ عِثْمَانَ ذِي الْكَرَمِ
أَهْلُ التَّقَى وَالتَّقْوَا وَالْحِلْمِ وَالْكَرَمِ

يا رب بالمصطفى بلغ مقاصدنا
واغفر الهى لكل المسلمين بما
بجاء من بيته فى طيبة حرم
وهذه بردة المختار قد خُتِمَتْ
أبياتها قد آتت ستين مع مائة
واغفر لنا ما مضى يا واسع الكرم
يتلون فى المسجد الأقصى وفى الحرم
واسمهُ قسَمٌ من أعظم القسم
والحمد لله فى بدء وفى ختم
فرج بها كربنا يا واسع الكرم

هذا شاعر صوفي آخر ، يفيض شعره رقة وعذوبة،
ويعجز المرء عن ادراك كل معانيه، وبلوغ جميع مقاصده،
ما لم يحط بشخصية صاحبه المتفردة، ومكانته
الرفيعة في عوالم الصوفية، والحب الالهي. شاعرنا هنا
هو عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي، نسبته الى
”يافع“ من حمير، مولده ونشأته في عدن بأرض اليمن.

كان اليافعي ذا علم غزير وإطلاع كبير، ومعرفة واسعة، وعلوم نافعة. بدأ حياته مهتما
بدراسة الفقه، وعلوم القرآن، ووجد في نفسه مع الأيام ميلا الى التصوف.

وعندما وجد اليافعي في نفسه رغبة في الاستزادة من مناهل العلم، على يد أعلام
عصره، أرتحل الي القدس، ثم دمشق ثم الحجاز لينتهي في مصر، حيث ذاع صيته،
وانتشرت قصائده وترانيمه الصوفية، وأضحى علما من أعلام التصوف.

ولليافعي مؤلفات كثيرة في التصوف وأعلامه تهافت الناس عليها كثيرا، على مدى
سبعين عاما وهي عمره كله (٦٩٨ - ٧٦٨م)، ومن أشهر هذه المؤلفات: «نشر المحاسن
الغالية في فضل مشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية».

وفي هذا المؤلف يشرح اليافعي بأسلوب أدبي جميل الأحوال والمقامات، كما يضمه
ما نظمه من أشعار وترانيم صوفية.

ومن أهم مؤلفات اليافعي أيضاً «روض الرياحين في مناقب الصالحين»، الذي يتناول
سير خمسمائة من أعلام الصوفية الكبار، أخبارهم، مناقبهم، كراماتهم، شمائلهم، وكل
ما يرتبط بحياتهم وأعمالهم.

أما شعر اليافعي فيمكن أن ننظر إليه كمنظومات صوفية تمثل فنا وسطا، فلا هي
بالشعر المطبوع، ولا هي بالنظم المتكلف، وقصائده تفيض بصدق العاطفة، وشفافية
الروح، ويقلب عليها الرمز.

وانظر اليه يقول في قصيدة بعنوان «الباب اللب في مدح شهيد الحب» يتوقف عند أروع المعاني الصوفية «المحبة» ويدعو إلى الموت عشقا:

قتيلُ العوى في مذهب الحب والفقر	بلا عوضٍ حاشاه من طلب الأجرِ
سوى رؤية المحبوب في ساعة القا	إذا ما قتل السيف عوض في الحشرِ
فشتان ما بين المقامين في العلى	وبين شهيد الحب والسيف في القدرِ
فما طالبٌ مولى له طال شوقه	وفي حبه قد مات خالٍ عن الصبرِ
كطالب مطعوم الجنان وشربها	وملبوسها والخيل والخور والقصرِ
كفى شرُّا موت المحب صبابةً	بمولى، وفضلاً جلَّ قدراً عن الحصرِ
قتيل جمالٍ قد ودَّه برؤية	ووصلٍ وقسربٍ والتنادم والسرِّ

وتكمن أهمية شعر اليافعي في أنه ينشر الثقافة الصوفية وأعلامها. ولليافعي أشعار كثيرة تفيض رقة وعدوية، الا انا سوف نورد هنا رائعته الذي اخترنا لها اسم «سلمى»، واسمها الأصلي «الراح المختوم والدر المنظوم في مدح المشايخ أصحاب السر المكتوم، وذم الطاعنين فيهم من جميع الخصوم»:

سلا عن حمى سلمى، وعن أهله الغرُّ	عسى خيرٌ يلقاكما، طيب الذكرِ
يجىءُ به من نحوها عذبٌ منطق	يفوح به من ريحها طيبٌ النشرِ
يُخبر عن سلمى وعن ذلك الحمى	وقول لسان الحال في نظمهِ الدرِّ
رعى الله عهداً مرَّع جيرة الحمى	هنا في رياضٍ زاهراتٍ به زُهرِ
سقتنا بها سلمى من الراح عندما	بدتْ فأضاء الكون من جانب الخدرِ

أما طت حجاباً عن بهاء جمالها
 نرومُ التسلّي عن هواها يبُسُنَدنا
 خليلي ما سلمى ونجد وما الحمى
 شربنا حمياً الكأس في قُدسِ حضرة
 لنا عُصرت من كرم نور جمال من
 فهمنا سكارى في المهامة والقفر
 وكلُّ جمال في الوجود بها يغرى
 وما راحها، ما كاسُها، ما الهوى العذرى
 وأكرم بها في حضرة القُدس من خمِر
 سقانا، وقد غبنا وحرنا فما ندري

سكرنا بها من شمسها قبل شربها
 أو السكر ذا من رؤية الكأس، أو أنت
 تجلّي بأوصاف الجمال فشاهدت
 فيا ليلةً فيها السعاداتُ والمنى
 فلما شربنا الراح في ساحة الرضا
 رسول عنايات برسم ولاية
 وضاعت لنا أنوار غيب وشوهدت
 وحلت بوادي طور قلب معارف
 وكم حكم تجلّي ملاح، كأنها
 وكم يدفع الله البلايا بسادة
 تشاوى برّياها إلى أخسر الدهر
 به رؤية الساقى الينا ذوى السكر
 عيون قلوب ما به حار ذو الفكر
 لقد صغرت في جنبها ليلة القدر
 أنا أغر السعد بالخلق الخضر
 وتصريفنا في الملك في البر والبحر
 أمور وأعلمنا بها أنها تجري
 زهت فيه كم حسناء في داخل الخدر
 عسرائس أبكار على منطق الدر
 من الخلق في كشف الشدائد والضمر

فمن لم يذا يؤمن، فقولوا له إذا
 تجلّي فضولاً في فضائل سادة
 مقامات أحباب ترى الشهب دونها
 قضى الدياجي من بهاء جمالها
 وما تلك من أشباه عُشك، فادح
 تجرأ على الغر المشايخ بالنكر
 لهم في سما مجد المفاخر كم قصر
 بنوها بيساقوت المواهب والدر
 بما يهتدى من للعلا نحوها يسرى
 إلى جوف عش في الغيابات أو جحر

كائسي وخمري..

أحبُّكَ حُبِّين: حبُّ الهوى
وحبُّنا لأنك أهلٌ لذاكنا
فأما الذي هو حُبُّ الهوى
فشغلي بذكرك عن سواك
« رابعة العدوية »

نعم هى أشهر النساء اللائى عرفن بالزهد. بل
التصوف. فعزفن عن الحياة الدنيا. وتقشفن. وتنسكن.
وتعبدن الله. انها ام الخير رابعة القيسية. والتي تغلب
عليها الاشتهار برابعة العدوية.. ومن نادر كلامها فى
النسك والزهد. قولها وقد قيل لها: لو كلمنا رجال
عشيرتك فاشتروا لك خادماً تكفيك مؤونة بيتك؟
فقلت وهو من بليغ القول : والله إنى لأستحي أن
أسأل الدنيا من يملك الدنيا. فكيف أسألها من لا
يملكها؟.

وتعبيراً عن بالغ خشيتها من الذنب، قولها لمن قال لها: هل عملت عملاً قط ترين أنه
يقبل منك؟ فقلت: ان كان شيء فخوفى من أن يرد على.

وقال رجل لرابعة: انى قد اكثرث من الذنوب والمعاصى، فهل يتوب على أن تبت؟
قالت وهو من نادر القول: لا ، بل لو تاب عليك لتبت.

ويروون عن العدوية أنها وهى طفلة خرجت هى واخواتها من شدة الجوع وقت أن
نزل القحط بالبصرة فوجدها رجل باعها بستة دراهم، وكانت تقرض الشعر وتغنيه
وتعزف على الناي، ولها مزاج فنى رقيق وميل طبعى الى الحزن ، ولعلها لذلك كانت
تحب الناي عن العود.

وشعر رابعة العدوية فيه لغة النساء، وربما استعملها سيدها للغناء فى مجالسه وكان
ذلك يسخطها عليه بسبب اتجاهاتها الدينية القوية حتى أنها شرعت فى الهرب وناجت
ربها قائلة: «الهى ا انى غريبة ويثيمة وأرسف فى قيود الرق، ولكن همى الكبير هو أن
أعرف أراض أنت عنى أم غير راض؟» أى أنها ربما كانت تخشى أن تبوء بغضب الله
بسبب ما كان يجبرها عليه سيدها.

وقد زادها ذلك من التهاافت على العبادة والابتهال الي الله أن يقللها من عشرتها، وقد تسمع عليها سيدها فى ليلة فوجدها تقول وهى ساجدة: «الهى ! أنت تعلم أن قلبى يتمنى طاعتك، ونور عينى فى خدمة عتبتك، ولو كان الأمر بيدي لما انقطعت لحظة عن خدمتك، لكنك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق القاسى من عبدتك !»، فلما كان الصبح طلبها سيدها وأعتقها ، فكان ذلك مدعاة أكثر للتوجه للشكر لربها فانصرفت بكليتها اليه وقد تحررت من رقها.

وكانت اذا انتهت من صلاة العشاء تصعد الي سطح دارها بعد أن تشد عليها درعها وخمارها وتدعو «الهى أنارت النجوم، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامى بين يديك»، ثم تقبل على الصلاة فاذا كان السحر وطلع الفجر قالت: «الهى هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر، فليت شعرى أقبلت منى ليلتى فأهنا، أم رددتها على فأعزى؟ فوعزتى هذا دأبى ما أحيتنى وأعتنى !».

وقد أطلق على رابعة العدوية التى توفيت فى البصرة سنة ١٣٥ هـ اسم «شاعرة المحبة الالهية» ، ويميل البعض الى النظر اليها كأول من تكلم من الصوفيين فى المحبة الالهية ، وأدخل هذا المعنى فى التصوف الاسلامي.

ومن خلال أشعارها فى المحبة الالهية ظهرت دعوة رابعة العدوية واضحة جلية، للتقرب الي الله عن طريق حبه.

وها هي ، رائعة رابعة العدوية «كأسى وخمرى» -فى رأينا طبعا- وبعدها «أحبك حبين» أشهر أشعارها وبعدها بعض مقطوعاتها التى وصلتنا وهى قليلة، لكنها شديدة الحلاوة، شديدة العذوبة، ذات ايقاع خلاب، وموسيقى ساحرة:

كأسى وخمرى والنديم ثلاثة وأنا المشوقة فى المحبة رابعة
كأسى المسرة والنعيم يديرها ساقى المدام على المدي متتابعة

فإذا نظرت فلا أرى إلا له وإذا حضرت فلا أرى إلا معه
يا عاذلي إني أحبُّ جماله تالله ما أذني لعذلك سامعة

* * *

أحبك حين: حب الهوى وحباً لأنك أهلٌ لذاك
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواك
وأما الذي أنت أهلٌ له فكشفك للحجب حتى أراك
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاك

* * *

راحتي يا اخوتي في خلوتي وحببي دائماً في حضرتي
لم أجذلي عن هواه عوضاً وهواه في البرايا مسحتي
حيثما كنت أشاهد حسنه فهو محرابي إليه قبلي
إن متُ وجداً وماتم رضا وأعتائي في الوري وأشقتي
يا طبيب القلب يا كل المنى جُذ بوصل منك يشفي مهجتي
يا سروري وحياتي دائماً نشأتني منك وأيضاً نشوتي
قد هجرتُ الخلقَ جمعاً أرنجي منك وصلأ فهو أقصى مني

* * *

يا سروري ومنيتي وعماد وأنيسى وعُدتي ومُرادي
أنت روح الفؤاد، أنت رجائي أنت لي مؤنس وشوقك زادي
أنت لولاك يا حياتي وأنس ما تشئت في فسيح البلاد

كم بدت منّة وكم لك عندي	من عطاء ونعممة وأيادي
حبك الآن بغيتي ونعمي	وجلاء لعين قلبي الصادي
ليس لي عنك ما حبيتُ براح	أنت مني مُمكنٌ في السواد
أن تكن راضياً عليّ فإني	يا مني القلب قد باد إسمادي

* * *

تهـ ٧٤٤٥..

نصحتك علما بالهوى.. والذي أرى
مخالفتي.. فاختر لنفسك ما يحلو
فإن شئت أن تحيا سعيداً فمُت بهِ
شهيئداً وإلا فالغرام له أهل
« ابن الفارض »

لا يذكر التصوف الا ويأتى اسمه فى أول الذكر ولا يأتى الحديث عن أشعار الحب الالهى، والترانيم الصوفية، الا وتراه فى المقدمة. إنه ابن الفارض فى العشق سلطان العاشقين - كما هو عند الصوفية - وفي الحب إمام المحبين، وفي الهوى قدوة المقتدين، وفي النظم أشعر المتصوفين، ويراه كثيرون علي أنه الصوفي المصري الأول بلا منازع، وزعيم شعراء الصوفية من العرب.

ولقد اختلفت فى ابن الفارض الآراء والأقوال، فبعضهم ينسبه إلى الكفر والقول بالاثحادية، وبعضهم يصفه بالقبطانية ويسرف فى الثناء عليه، فمن يكون ابن الفارض؟ هو شرف الدين أبو حفص عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي الحموي المصري، المعروف بإبن الفارض، لأن أباه كان يعمل فارضا، أي يثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدي الحكام، فغلب عليه لقب «الفارض» وعرف ولده بابن الفارض.

وإبن الفارض مصري المولد والنشأة والوطن، وكان عميق الحب لمصر، ينوء بها ويتغنى فيها، ولقد عاش فى عصر الأيوبيين (٥٥٦ - ٦٣٢هـ) وفيه شاع مذهب أهل السنة، وصار فيه للصوفية مكانة، فهو عصر يسوده المذهب السني والاتجاه الصوفي والنزعة الشعرية، ولقد تعاونت علي تكوين شخصية إبن الفارض بيئات ثلاث: الشام، وهي أصله ومنبت أسرته، والشام تغلب علي أهله رقة الطبع، ومصر مكان مولده ونشأته، ولمصر مكانتها، والحجاز وفيه أقام ابن الفارض خمسة عشر عاما، وللحجاز نفحاته.

ولقد نشأ إبن الفارض عفيفا متصوفا، زاهدا متعبدا، ورعا متدينا، درس الحديث وفقه الشافعية، وكان يحب الخلوة والعزلة وكثيرا ما كان يؤوي إلي ناحية في جبل المقطم، تسمى «وادي المستضعفين»، أو في أحد المساجد المهجورة في القرافة.

وحينما سلك إبن الفارض طريق التصوف بدأ بسلوك طريق التصفية والتنقية

والتجريد وقد جمع ابن الفارض بين ثلاث: الشاعرية ذات الحس الدقيق والشعور الرقيق، والصوفية ذات الذوق، والرياضة والمجاهدة، والمحبة ذات العواطف الشريفة والانفعالات العفيفة التي تستبد بها النزعة الروحية التي يصعب علينا تحديدها أو تقييدها.

ولم يخلف لنا ابن الفارض آثاراً مكتوبة غير ديوانه الشعري وهذا الديوان ينظر إليه أهل الأدب علي أنه كغيره من دواوين الشعر الغزلي البشري، وينظر إليه أهل التصوف علي أنه ديوان شعر صوفي نظمه صاحبه في الحب الالهي.

ومن الواضح الجلي أن شعر ابن الفارض تسيطر عليه عاطفة الحب، سواء أكان حبا حسيا أو حبا روحيا، وهناك من الباحثين الأدباء من يقرر أن حب ابن الفارض كان في عهد شبابه حبا حسيا، فقد كان في شبابه مضرب المثل في نضارة الجسم والشكل وبهاء المنظر، ولكنه في عهد الكهولة إنتقل إلي الحب الروحي الالهي، ومما يقوي هذا الاستنباط أن بعض الغزل في شعر ابن الفارض يصعب تأويله علي أنه غزل روجيه. ومن أمثلة ذلك قوله:

ولما تلاقينا عشاء، وضمنا	سواء سبيلي دارها وخيامي
وملنا كذا شيشا عن الحي، حيث لا	رقيب، ولا واش بزور كلام
فرشت لها خدي وطاء علي الثري	فقال: لك البشر بلثم لشامي
فما سمحت نفسي بذلك غيرة	على صونها مني لعز مرامي
وبتنا كما شاء إقتراحني على النني	أري الملك ملكي والزمان غلامي

وسوف نقدم هنا - عزيزي القارئ - رائعة ابن الفارض «ته دلالا»، التي تمثل درة علي جبين الشعر:

ته دلالا فأنت أهلٌ للذاكــا ولحكــم فالحسن قد أعطاكــا

فعلَى الجمالُ قد ولّاكا	ولك الأمرُ ما أنت قاضٍ
بك، عجلٌ به جعلتُ فداكا	وتلاقي ان كان فيه اتسلافي
فاختباري ما كان فيه رضاكا	وبما شئت في هواك اختبرني
بي أولى، وإذ لم أكن لولاكا	فعلَى كلِّ حالةٍ أنت مني

* * *

وخضوعي، ولست من أكفاكا	وكفاني عزّاً بحبك ذلّي
نسبني عزّةً وصحّ ولاكا	وإذا ما إليك بالوصل عزّت
بين قومي أعدّ من قتلاكا	فاتهامي بالحب حسبي، وإني
في سبيل الهوي استلذّ الهلاكا	لك في لحيّ هالك بك حيّ
لو تخلّيت عنه ما خلاكا	عبد رقّ مارق يوماً لعنت

* * *

هأم وإستمذب العذاب هناكا	بجمال حببتّه، بجلال
ك، فعنه خوف الحجي أقصاكا	وإذا ما أمن الرجاء منه أدنا
ك، باحجام رهبة يخشاكا	فباقدام رغبة حين يغشا
ك، وفيه بقية لرجاكا	ذات قلب فساذن له يتمنا
فكأنني به مطيعاً عصاكا	أومر الغمض أن يمرّ بجفني

* * *

م، فيوحي سرّاً إلي سراكا	فعمسى في المنام يعرض لي الوهم
--------------------------	-------------------------------

وإذا لم تُنعمش بروح التسمني	رمقي، واقتضي فنائي بشاكا
وحمت سنة الهوي سنة الغم	ض جفوني، وحرمت لُفياكا
أبق لي مسقلة لعلّي يومًا	قبل موتي أري بها من رآكا
أين مني مارمت هبهات، بل أبا	من لعيني بالجفن لثم تراكا

* * *

فبشيري لو جاء منك بعطف	ووجوي في قبضتي، قلت هاكا
قد كفي ما أري دما من جفون	بك قرّحي، فهل جرى ما كفاكا
فأجر من قلاك فيك مُعني	قبل أن يعرف الهوى يهواكا
هبك أن اللأحي نهاه بجهل	عنك قل لي عن وصله من نهكا
والإي عشقك الجمال دعاه	فإلي هجره تري من دعاكا

* * *

أترى من أفناك بالصدّ عني	ولغسيري بالودّ من أفناكا
بانكساري بذلتى بخضوعي	بافتقاري بفاقتي بفناكا
لا تكلني إلى قسوى جلد خا	ن، فاني أصبحت من ضعفاكا
كنت تجفّو وكان لي بعض صبر	أحسن الله في اضطباري عزّاكا
كم صدودا عساك ترحم شكوا	ي، ولو باستماع قولي عساكا
شنع المرجفون عنك بهجري	وأشاعوا أني سكوت هواكا
ما بأحشائهم عشقت فأسلو	عنك يومًا، دع بهجروا، حاشاكا

كَيْفَ أَسْلُو وَمَقَلَّتِي كُلَّمَا لَا
 أَنْ تَنْسَمْتُ تَحْتَ ضَوْءِ لُثَامٍ
 حَ بَرِيقٌ تَلَفَّتْ لِلْقَاكَا
 أَوْ تَنْسَمْتُ الرِّيحَ مِنْ أَثْنَاكَا
 طَبِيتُ نَفْسًا إِذْ لَاحَ صُحُوحُ ثَنَايَا
 كَ لَمَعَيْنِي، وَفَاحَ طِيبُ ثَنَاكَا

كُلٌّ مِنْ فِي حِمَاكَ يَهْوَاكَ، لَكِنْ
 فِيكَ مَعْنَى حَلَاكَ فِي غَيْنِ عَقْلِي
 أَنَا وَحْدِي بِكُلِّ مَنْ فِي حِمَاكَ
 وَبِهِ نَظَرِي مُعْنَى حِلَاكَكَ
 فُقُتْ أَهْلُ الْجَمَالِ حُسْنًا وَحُسْنِي
 يُحْشِرُ الْعَاشِقُونَ تَحْتَ لَوَائِي
 يَا مَلِيحَ الدَّلَالِ عَنِّي ثَنَاكََا
 مَا أَثْنَانِي عَنْكَ الْفُضْنَى فَبِمَاذَا

لَكَ قَرَبٌ بِبِعَمْدِكَ عَنِّي
 عِلْمُ الشُّوقِ مَقَلَّتِي سَهْرَ اللَّيْلِ
 وَحَنُو وَجْدَتِهِ فِي جَفَاكََا
 لِي، فَصَارَتْ مِنْ غَيْرِ نَوْمٍ تَرَكََا
 حَبِّذَا لَيْلَةً بِهَا صِدْتُ أُسْرَا
 كَ، وَكَانَ السُّهَادُ لِي أَشْرَاكََا
 كَ لَطَرْفِي، بِيَقْظَتِي إِذْ حَكَكََا
 نَابَ بَدْرُ التَّمَامِ طَيْفَ مُحْيَا
 بِكَ فَرَرْتُ وَمَا رَأَيْتُ سَوَاكََا
 فَتَرَاءَيْتُ فِي سَوَاكََ لَعِينِ

وَكَيْذَاكَ الْخَلِيلُ قَلْبَ قَبْلِي
 قَالِدُ يَاجِي لَنَا بِكَ الْآنَ غُرُّ
 طَرَفُهُ حِينَ رَاقِبَ الْأَفْلَاكََا
 حَيْثُ أَهْدَيْتَ لِي هُدًى مِنْ ثَنَاكََا

ومنى غُبتَ ظاهراً عن عياني ألقىه نحو باطني الفاكَا
أهل بدرٍ ركبٌ سرّيتَ بليلٍ فيه بل سار في نهارِ ضياكا
واقْتباسُ الأنوار من ظاهري غيْبُ سر عجيبٍ وباطني مأواكا

* * *

يغْبَقُ المسكُ حينما ذُكرَ اسمي منذ ناديتني أَقْبِلُ فاكَا
ويضوَعُ العبيرُ في كلِّ نادٍ وهو ذكْرٌ معبرٌ عن شذاكا
قال لي حسنُ كلِّ شيءٍ تجلّى بي ثَملي فقلتُ قصدي وراكَا
لي حبيبٌ أراكَ فيه معنى غُرَّ غيري وفيه مَعْنى أراكَا
ان تولى على النفسوس تولى أو تجلّى يستعبدُ النُّساكا
فيه صوّضتُ هُدًى ضلّالاً ورشادي غيًّا وسنري انتهكا
وحدَّ القلبُ حبه فالتفاني لك شِرْكٌ ولا أرى الاشرাকা
يا أخا العدلِ في من الحسنِ مثلي هام وجداً به عِدمتُ أخاكَا
لو رأيتَ الذي سبباني فيه من جمالٍ ولن تراه سباكا
ومتى لاح لي اغتفرتُ سُهادي ولعيني قلتُ هذا بذاكَا

* * *

الآلسنة والأسماع، هو الذي أُغرى كثيرين بالنظر إليه متابعة واستلهاماً، يقول واحد منهم
يعزف على وتر رابعة:

لما علمت بأن قلب فـ... من سواك، ملأته بهواكا

ومسلات كلي منك، حتى لم أَدع
فالقَلْب فيه هيامه وغرامه
والطرف حيث أُجيله متلفنا
والسمع لا يصغى إلى متكلم
بل انه ينظر من قريب أيضا إلى أبيات ابن الفارض المشهورة:

لك قرب مني، يسمدك عني
علم الشوق مقلتي سهر الليل
حبذا ليلة بها صدت أسراك
بات بدر التمام طيف محياك
فستراءيت في سواك لعين
وحنو وجدته في جفاكا
فصارت من غير نوم تركا
وكان السهاد لي أشراكا
لطرفي ييقظني إذ حكاك
بك قُرت وما رايت سواكا

وهي أبيات تدور حول فكرة استحضر صورة المحبوب وتفنن هؤلاء الشعراء العشاق في الإتيان بالصور المبتكرة والمعاني الطريفة، وهو مجال كان لابن الفارض فضل السبق فيه، من خلال قدرته الفذة على إصطياد عشرات الصور التي يتمثل فيها جمال صورة المحبوب، وتتجلى روعتها وتفردا وتمايزها، أليس هو القائل:

تراه إن غاب عني كل حارجة
في نعمة العود والنأي الرخيم، إذا
وفي مسارح غزلان الحمائل في
وفي مساقط أنداء الغمام علي
وفي مساحب أذيال النسيم إذا
وفي التشامي نغر الكأس مرتشقا
لم أدر ما غربة الأوطان وهو ممي
في كل معنى لطيف رائق بهيج
تألفا بين الحنان من الهزج
برد الأصائل والاصباح في البلج
بساط تور من الأزهار متسج
أهدى إلي سحيرا طيب الأرج
ريق المدامة في مستنزه فوج
وخاطري أين كنا غير منزعج

* * *

ليلى..



قد سُقْتُ فى الهوى إليك مهجتي
والدمُ دمعٌ لفسرامى شهابه
ولم أقصّرُ فيك عن حفظِ الهوى
والحرُّ مَنْ يحفظُ من يعاهدُ
« نجم الدين »

قد لا يعرف الكثيرون هذا الشاعر الصوفي الكبير الذي لم يعطه المؤرخون ما يستحقه من مكانة، كأحد أعلام الأدب والتصوف في القرن السابع الهجري. والشيخ محمد ابن سوار بن اسرائيل بن الخضر بن الحسن بن علي بن الحسين الشيباني المعروف باسم نجم الدين ابن اسرائيل (٦٠٣-١٧٧هـ) هو أحد أولئك الأعلام الذين جمعوا بين الشعر والاتجاه الصوفي.

وقد بدأ نجم الدين شاعرا غزليا حسيا أكثر منه روحيا، كما يمكن القول ان شعره كان خليعا في البداية، ثم سرعان ما جاءت لحظة التحول الروحي في حياته، فدخل عالم التصوف، وأخذ قواعد الطريق على يد الشيخ علي الحريري ثم الشيخ شهاب الدين السهروردي، صاحب كتاب «عوارف المعارف».

ولعل هذا هو ما أحدث تغييرا جذريا في توجهات نجم الدين الشعرية، ولعل الآيات التالية خير مثال على ذلك:

يا مَنْ يُشِيرُ إِلَيْهِمُ الْمُتَكَلِّمُ	وَالْيَهُمُ يَنْبُوجُّهُ الْمُتَظَلِّمُ
وَعَلَيْهِمْ يَحُلُو التَّأْسَفُ وَالْأَسَى	وَتَلْدُ لَوْعَاتِ الْفَرَامِ الْفَرَمُ
هَذَا الرَّجُودُ وَإِنْ تَعَدَّدَ ظَاهِرًا	وَحَيَاتِكُمْ مَا فِيهِ إِلَّا أَنْتُمْ
وَشَفَلْتُمْ كُلِّي بَكُمْ وَجَوَارِحِي	وَجَوَاتِحِي أَبَدًا نَحْنُ إِلَيْكُمْ

* * *

وَإِذَا نَظَرْتُ فَلَسْتُ أَنْظُرَ غَيْرَكُمْ	وَإِذَا سَمِعْتُ فَمَنْتُمْ أَوْ عَنْكُمْ
وَإِذَا نَطَقْتُ فَفِي صِفَاتِ جَمَالِكُمْ	وَإِذَا سَأَلْتُ لِلْكَائِنَاتِ فَعَنْكُمْ
وَإِذَا سَكِرْتُ فَمِنْ مُدَامَةِ حَبِيبِكُمْ	وَبِذِكْرِكُمْ فِي سَكْرَتِي أَتَرْنَمُ
وَإِذَا نَظَّمْتُ تَفْسِزُ لَا فِي صُورَةٍ	فَلْأَجْلِ حُسْنِكُمُ الْمُحِبِّبِ أَنْظَمُ

* * *

أَنْتُمْ حَقِيقَةٌ كُلُّ مَوْجُودٍ بَدَأَ	وَوَجُودَ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ تَوَهَّمُ
---	--

أنا في وجسودكم غريبٌ بائنٌ وغريكم مما باله لا يُرحمُ
 ويتميز شعر نجم الدين بصدق معانيه، وروعة مخيلته، وسمو مقاصده، وغناء
 مفاهيمه الصوفية. وسوف نورد هنا غزلية لنجم الدين الصوفية الرقيقة «ليلي» التي يرمز
 فيها للجمال الالهي بليلى، ويقول مؤثراً الموت على الهجر:

هل عهد ليلي بالكثيف عائدٌ أم طيفها لسقمٍ جسمي عائدٌ
 حوار حار العقل في صفاتها لها الجمال عاشقٌ وحاسدٌ
 فكل عـضـو بدر طالعٌ وكل عطف فيه غصنٌ مائدٌ
 فمعلمها وحسنٌ صبرى ناقصٌ وحسنها وفرطٌ وجدي زائدٌ

يا كعبة الحسن التي أحجها فؤادُ مُضناك عليك واقعدُ
 قد سقتُ في الهوى اليك مبهجتي والدمُ دمع لغرامى شاهدُ
 وطفقتُ في مفضناك حتى ملئى من أرضك الرسومُ والمهادُ
 ولم أقصّر فيك عن حفظ الهوى والخسرُ من يحفظ من يعاهدُ

وربما يُجمعُ جمعٌ شملنا بكم وتصفو عندك المواردُ
 وعَلَّنا نقضى منانا بمنى وتنقضى من وصلنا المواهدُ

أو لا فيموتى فيكم شهادةً على فيهما بالرضى شواهدُ
 إلى كم، رعاك الله، تنأى وأقربُ وأرضى بما تجنى على وتغضبُ

فلا أنتَ مشك إن شكوتُ فيشتفي	فؤادي وإن أعتبَ فما أنتَ مُعتَبُ
تكلفتَ لي ذاك الودادَ فلم يدمُ	وكلُّ ودادٍ بالتكلفِ يصمبُ
ومنْ يتكلفُ ضد ما هو طبعه	تعدُّ نفسه للطبعِ والطبعُ أغلبُ

* * *

يقولون هندٌ لا تدومُ وزينبُ	على العهدِ، كلُّ الناسِ هندٌ وزينبُ
تطلبُتُ ودًا لا يكونُ لعلَّة	فأعسوزني وجدانُ منّا أتطلبُ
وحاولتُ مَنْ يوفى بعهدٍ فلم أجدُ	كأن الذي حاولتُ عنقاءُ مغربُ
تلطفُ فإن اللطفَ منك سجيئةٌ	تعطفُ فإن العطفَ منك ميجربُ

* * *

وإن كان لأبدًا من الهجرِ فاتتُ	لعل رحيلي عن جنابك يُقربُ
سأرحلُ عنك اليومَ لامتلفتُ	بوجهي كائنٍ خائفٌ مترقبُ
وأما ودادي فهو باقٍ وإن من	بقساء ودادي أننى أتعنّبُ

لن أفعل كسائر الناس!..

لا تلمني يا سيدي إذا احتسيت الخمرَ والشرابِ
وإذا قضيتُ في الخمرِ والعشقِ أيامَ الشبابِ
« ابن أبي الخير »

أبو سعيد فضل الله المعروف باسم ابن أبي الخير هو أحد كبار اعلام الصوفية الذين عرفتهم بلاد فارس، وهو صاحب المؤلف المعروف "المقامات فى التوحيد"، التى صاغها بشعرا بالفارسية، على هيئة رباعيات.

ويقال ان ابن أبي الخير الذى ولد بخراسان وعاش ما بين (٣٥٧ - ٤٤١هـ) أنه أول من ابتدع الشعر الصوفى، وأول من استخدم الرمزية والقصص فيه، وأول من طوع الرباعيات لكى تحتوى الأفكار الصوفية، ثم سار على دربه باقى من عاصروا، أو تلووه من شعراء الفرس.

وقد درس ابن أبي الخير الفقه الشافعى، وأخذ التصوف عن أبيه، وكانت حياته كلها زهد وتصوف، وتقشف، وكان يصلى بالليل والنهار ويعصوم بالأيام، حتى مات عن ثلاثة وثمانين عاماً.

ويقال أنه لما أشرف ابن أبي الخير على الموت طلب أن يكتبوا على قبره هذين البيتين:

سألتك بل أوصيك ان مت فاكتبى على لوح قبرى كان هذا منيما

لعل شجيا عارفا ستن الهوى يمر على قبر الغريب مسلما

ورغم أن ابن أبي الخير كان أحد شعراء عصره الكبار، وأحد الأصوات الصوفية العذبة التى شددت وصدحت بالحب الالهى إلا أنه لم يأتنا من شعره الكثير، لذا ستورد هنا جزءا من شعره، الذى جاء فى الترجمة الرائعة التى قدمها للمربية الدكتور الشواربي، وقد اخترنا لها عنوان «لن أفعل كسائر الناس»:

قلت: حدثنى عن جمالك.. من الذى يفوز بيهجته وسناه

فقال: أنا وحدى الفائز به.. مادمت فى الوجود والحياة

فإنى أنا وحدى لعاشق والمعشوق والمعشوق فى منتهاه

وإني. أنا وحدى العين المبصرة والجسمال الزاهى والمرأة

لا تلمنى يا سيدي إذا احتسيتُ الخمرَ والشرابَ
وإذا قضيتُ في الخمرِ والعشقِ أيامَ الشيبِ والشبابِ
فإننا في إلفاقِنِي أعاشِرُ الأحيابَ وخيرَ الأحيابِ
ولكنني متى سكرتُ لا أجالسُ غيرَ الأصحابِ

حدثُ طبيبِي عن ألامِي الكثيرةِ الخافيةِ
فقالَ لي كُفْ الحديثَ ولا تتكلمَ إلا عن صفاتهِ العاليةِ
وحذارِ أن تفكرَ في الدارِ القانيةِ أو الباقيةِ

يا إلهي أنا في عشرِني أرغى حفسوكَ ورضاكَ
وأنا في ذلَّتِي أبثسُني رحمَتَكَ ونداكَ
ولنْ أفعلَ كسائرِ الناسِ فأحتَمِي بهذا وذاكَ
وليس من حاسِمٍ ولا واقٍ في العالمينَ سواكَ

إنشودة الساقى..

تجلى وجهه محيوي
وهذا كل مطلوي
به صبري هو الواهي
ومسوني فبيته مرغسوي
« النابلسي »

هذا الصوفي الجليل، كان شارحا - لا يباريه أحد -
للطرق الصوفية في عصره، كما كان صاحب أكبر عدد
من المؤلفات العظيمة التي تزيد على ١٨٨ مؤلفا. ورغم
أن أكثر هذه المؤلفات شهرة حتى يومنا هذه هو كتابه
”تعطير الأنام في تفسير الأحلام“، الذي قام فيه بتفسير
الرؤى بالاشراقات والمكاشفات، إلا أن باقي لا تقل قيمة
عن هذا الكتاب الذي يلتف حوله الناس في كل زمان
ومكان . من العالم الاسلامي الكبير.

ونذكر من مؤلفات هذا الشاعر الصوفي عبدالغني بن اسماعيل بن عبد الغني وشهرته
«النبلسي» (الحنفي الدمشقي النقشبندي القادري) الحديقة الندية في شرح الطريقة
المحمدية، وجواهر التصوص في حل كلمات الفصوص للشيخ محيي الدين بن عربي،
وكشف السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض، وزهر الحديقة في ترجمة رجال
الطريقة، وايضاح المقصود في معنى وحدة الوجود، ومفتاح المعية في شرح الرسالة
النقشبندية، وتحقيق الذوق والرشف في معني المخالفة بين أهل الكشف، والنظر في معني
قول ابن الفارض عرفت أم لم تعرف، والسر المختبي في ضريح ابن العربي، والفتوحات
المدنية في الحضرات المحمدية، ورد المتين علي متقاص العارف مجيبي الدين، والفتح
الرباني والفيض الرحماني، والصراط المثوي في شرح ديباجات المثوي، وبداية المريد
ونهاية السعيد، والعقود اللؤلؤية في طريقة السادة المولوية.

وللنبلسي ديوان رائع بعنوان «الحقائق ومجموع الرقائق» ويضم شعره الذي يضم
الكثير من المواويل التي تغلب عليها «المصرية» والتي يتشدها المنشدون في حلقات الذكر
ومنها علي سبيل المثال لا الحصر:

يا أمة العشاقِ فز بالبصر والسمع	قوموا اتركوا الفرق عنكم واقبلوا الجمع
نور الشموع الذي يلمع عليكم لَمْعُ	من حرقه القلب قد سالت دموعُ الشمعِ

قوموا بنا كلنا نخرق حجابَ الطبع وتتبع يا جماعة ما أتى في الشرع
حتى نشاهد جمال الله يلمع لَمْع ولا وجودَ لنا وهو الوجودُ الجمع

حيينا في بديع الحسن حيرنا بين الحياة وبين الموت خيرنا
حكم علينا وبالهجران غيرنا وبعد هذا بسوء الحال غيرنا

وشعر النابلسي الذي يفيض عذوبة وحلاوة، وينساب في روعة وسلاسة، يغوص في صريح المواجيد اللالهية، والتجليات، ومنها هذه التجليات في وجه المحبوب، تلك المقطوعة التي ذاعت في حلقات الذكر عن المتصوفة والعشاق:

تجلي وجه محبوبي وهذا كُلُّ مطلوبي
فيا نار العدا ذوبي بعيداً عنك مشروبي
جمال الأهيف الزاهي وحسن الأغيد الباهي
به صبري هو الواهي وموتني فيه مرغوبي
رأينا نوره أشرق فكنا برقه الأبرق
ولا نجد ولا أبرق سوى الأبريق والكبوب

علينا الخمر قد دارت بها البائنا حارث
وأطيار الهوى طارت بترتيب وأسلوب
مليح الكون وأفانينا وزاد الحسن إحساننا
وحياً يوسف الأنا فقرت عين يعقوب

ومع ذلك، تبقى رائعة «النايلسي» التي شغلت الناس طويلا «أنشودة الساقى» معا
أعظم ما كتب من شعر لعذوية إيقاعها، وخفة روحها، وسحر موسيقاها.

ولعل روعة هذه الأنشودة كانت سببا مباشرا في خلود أبياتها حتى يومنا هذا، ولنر معا
كيف صاغ «النايلسي» أنشودته الخالدة:

ساقى ياساقسى	أسقني من خمرة الباقي
وأكشف لي عن قيدٍ إطلاقي	آه يا ساقى، آه يا ساقسى

أستاره راحتُ حسن	عينى والزهرة فاحستُ
والسكرة بالأسرارِ باحتُ	آه يا ساقى، آه يا ساقسى

اكشف لي عنك	فى ذاتى وافتسح لي دنك
واجعلني يا جى أنك	آه يا ساقسى، آه يا ساقسى

افتح لي باب الحان	واسمعي من طيب الحان
وارشفني من كأسى الملان	آه ساق، آه يا ساقسى

من يشرب يسكر	من خمري لما يتفكر
ولامفرور فى عليمه أنكر	آه يا ياساقى، آه يا ساقسى

لا يعرف أمرى	إلا من يشرب خمري
أحشاؤه تصلي فى جمري	آه يا ساقى، آه يا ساقسى

ظهرت لكل الكون..

وهو ما طابَ عيشٌ لم تكن فيه واصلاً
ولم يصفُ، لا والله، أني له يصفو
عزمت على أن أترك الكون كله
وأفوضوا سبيل الحب، والمجيتي بقفوذ
« ابن عطاء الله السكندري »

علم آخر من أعلام الصوفية. وأبرز ممثلي التصوف
المصري في القرن السابع الهجري. ينسب إلي
الاسكندرية حيث ولد وعاش فيها إلى أن غادرها إلى
القاهرة. بعد وفاة شيخه أبي العباس المرسى سنة
١٨٦ هـ. بعد أن صحبه اثني عشرة سنة. وتلقى عنه
الطريقة الشاذلية.

وقد كانت بداية ابن عطاء انكارا للتصوف، واعتراضا علي المرسى، ثم استمع إليه،
وأعجب به، وسرعان ما عكف عن جمع أقواله، وأستاذه الشاذلي، وترجم لهما، وحفظ
تراثهما، وصار داعيا للطريقة الشاذلية.

وقد كان ابن عطاء، وكنيته تاج الدين، أحد كبار أئمة عصره في التفسير والحديث، له
اليد الطولي في العلوم الظاهرة، والمعارف الباطنة، التي وهب لها حياته التي امتدت حتي
سنة ٧٠٩ هـ.

ولابن عطاء مؤلفات كثيرة مثل «الحكم العطائية» التي تعد من عيون الشر الصوفي،
وأغلبها في صورة مخاطبات موجهة للمريد السالك، و«المناجاة العطائية»، وتعد من
روائع الأدب الصوفي، و«التنوير في اسقاط التدبير»، و«تاج العروس الحاوي لتهذيب
النفوس»، وهما عبارة عن مواعظ في التصوف.

وكما كان ابن عطاء رائعا في نثره، كان أيضاً رائعا في شعره الذي لطالما كان منبععا
للزاهدين، وقبلة للمتصوفين، ومرجعا للسائلين.

ومن شعر ابن عطاء سنقدم هنا قصيدة «ظهرت لكل الكون» وهي عبارة عن إبتهاال
إلي الله، يمتزج فيه الأمل بالرجاء:

وكلّىَ محسّناً، وأنت لك الغنى ومثلي من يُخطئ، ومثلّك من يُمفّقو
وأنت الذي أبدى الوداد تكرمُنا ومثلّك من يرعى، ومثلي من يجفّقو

وما طاب عيش لم تكن فيه واصلاً ولم يصف، لا والله، أني له يصفو
عسزمتُ علي أن أترك الكون كله وأقضو سبيل الحب، والمُجْتَبِي يَقْفُو

* * *

شهودكم ويجلو الحجاب لأنه اذا حَقَّقَ التحقيق صار هو الكشفُ
وما أحسنَ الأحبابَ في كُلِّ حالة قلله ما يبدوا ولله ما يخفوا
وإن الأولي لم يشهدوك بمشهدٍ قلوبهم عن نيل سر الهوي خلفُ
وأنت الذي أظهرتُم ظهرت في جميع المبادي مثلما شهد العرف

* * *

ظهرت لكل الكون، فالكون مُظهرٌ وفيه له أيضاً كما جاءتِ الصحفُ
فأى فسّادٍ عن فؤادك يتثنى وأية عينٍ بعد قربك لن تغفو
وأية نفسٍ لم يملها هواكـمو على حُبِّكم طراً، نفوسُ الوري وقفُ
أيا صاحٍ هذا الركبُ قد سار مُسرِعاً ونحنُ قعودٌ، ما الذي أنت صانعُ
أترضى بأن تبقي المُخلَّفَ بمدهم صريع الأمانى، والغرام يناعُ
وهذا لسان الكون ينطق جهرةً بأن جميع الكائنات قواطعُ
وأن لا يرى وجه السبيل سوى أمرى رمى بالسري لم تختدعه المطامعُ

* * *

ومن أبصر الأشياء والحق قبلها فغيب مصنوعاً بمن هو صانعُ
يواده أنوار لمن كان ذاهباً وتحقيق أسرار لمن هو راجعُ

فقم وأنظر الأكوان والنور عَمَّها ففخرُ التَّداني نحوكَ اليومَ طالعُ

وكنْ عِبْدَةً أَلْقِ القِيَادَ لحكمه	واياك تدييراً فما هو نافعُ
المحكم تدييراً وغبيرُك حاكمُ	أأنت لأحكامِ الاله تَنازعُ؟
فمحو ارادات وكلُّ مَشِينَةٍ	هو الغرضُ الأقصى فهل أنت سامعُ؟
كذلك سار الأولون فأدر كوا	على ائرهَم فليَسَّر من هو تابعُ
على نفسه فليُبِك من كان طالِباً	وما لُمستُ ممن يُحبُّ لوامعُ
على نفسه فليُبِك من كان باكيّاً	أيذهبُ وقتٌ وهو يالللهو ضائعُ

بالنور أشرققت...

يا دولة العز الهني السرمسيدي
عزل المساوئل لا يزال مسقطمي
فميتي أجرد سيف عزمي فانتكا
وينفوز « حلمي » رغم أنف المدعي
« إبراهيم حلمي القادري »

ابراهيم حلمي القادري هو شيخ الطريقة القادرية
النيازية، التي اشتقت اسمها من الجمع بين اسمي
(عبدالقادر الجيلاني - عبد الرحمن نيازي) والتي اتخذت
من مسجد القادرية بالاسكندرية مقرا لها.

وعلى مدى سنوات عمر القادري التي تقترب من سبعين عاما (١٣٢٢ - ١٣٩٠هـ)
كان الرجل مثالا فريدا من نوعه للصوفي الذي يغلب علي تصوفه الطابع العلمي
الرصين، البعيد عن كل مظاهر التخلف، التي نراها في بعض الطرق الصوفية المعاصرة.
وقد كانت شخصية الشيخ القادري تجمع ما بين الفقيه والمربي والمحقق والصوفي
والشاعر الذي جعل من شعره أداة للتعبير عن الموضوعات الصوفية بطريقة رائعة ،
ومحكمة، وغاية في البلاغة .

وشعر القادري ينطبق عليه - كما هو الحال، في معظم الشعر الصوفي - المثل القائل
«أطيب الكلام أصدق» . فقد كان شديد الالتصاق بذاته، عظيم التوافق مع نفسه ، غلبت
عليه المحبة الالهية، فراح يتغني بها، وينشد أعذب الكلمات، وأرق الألحان.

وعلي الرغم من أن هناك قصائد صوفية خالصة للشيخ الصادرى تذخر بها المكتبة
الصوفية، إلا أن له اطلالات شعرية علي العديد من القضايا التي شغلت مصر طويلا.
ومع ذلك، يبقى شعر القادري الصوفي مرآة صادقة لتصوف هذا الشيخ الجليل
الصحيح، واستغراقه في الحب الالهي.

ونورد هنا رائعته «بالنور أشرق» التي كتبت أبياتها علي جدران مقامه، وهي مثال
واضح علي مدي رقة وعذوبة أشعار القادري الصوفية:

يا سيّدي أنت الغياثُ ومَفْزَعِي ولئن بدا للغير فهو ثَمْنِي
لكم الولا ودخيلكم بشكو الضنا والعبيد يكرم بالولاء الأرفع

وبكم عُرِفْتُ وَلِي لَدَيْكُمْ حُجَّةٌ تَسْمُو عَلَيَّ فَلَكَ الْوُجُودُ الشُّرْعُ
وَالشَّمْسُ تَعْلَمُ أَنِّي مَعَهُودُكُمْ وَلَهَا عَلَوْتُ وَكَانَ إِمْرٌ تَطْلُعِي

وَبِهَا فَسَالَ الدَّمْعُ مِنِّي تَمْدُّهُ زَفَرَاتُ قَلْبِي وَاصْطِلَامُ الْهُلَعِ
وَبِهَا فَأَرَجْتُ الْعُطُورَ يَبِثُّهَا خَيْرَ الْخَلَائِقِ بِالْدُعَاءِ الْأَجْمَعِ
مِنْهَا عَلَيَّ الْخَالِيقُ كُنْتُ مُنَاجِيَا أَهْلَ الْهَوَى وَالسَّاجِدِينَ الطُّوْعِ
وَعَلَيَّ الْمَعَارِجُ سَيِّدِي أَرْقِيْتَنِي وَخَلَوْتُ بِالْبَيْتِ الْمَشِيدِ وَلَا دَعِي

أَقْرَأْتَنِي قَلِيمًا كَرِيمَ خُطَابِكُمْ وَبِهِ انْتَشَأْتُ وَكَانَ أَمْنٌ تَضْمَعُضِي
بِالنُّورِ أَشْرَقَتْ الْحُرُوفُ وَكُنْتُ لِي عَيْنًا وَقَلْبًا وَاصْطَنَعْتَ مَسَامِعِي
وَسَيِّفَتَنِي كَأَسَا فِهْمْتُ مُنَاجِيَا وَنَظَّمْتُ أَرْوَعَ مَا يَكُونُ وَمَامِعِي
غَلَبَتْهُمُ رُوحِي وَإِنْ فَطِمَ كُمْ حَاشَاهُ يَسْجُدُ أَوْ يَقُومُ لِمُنْتَعِ
عَذْلٌ وَنَبْرِيحٌ وَأَنَّهُ مُوَجَّعٌ وَالصَّبِيرُ بَعْدَ بَهَائِهِ لَمْ يَلْمَعْ
مَنْ لِلنَّزِيلِ إِذَا شَكَاهُ مِنْ غُصَّةٍ إِلَّا السَّيِّدِي مِنْ بَرٍّ لَمْ يُمْنَعْ
أَلْفَ الدَّخِيلِ مُكَارَمًا مِنْ عَظْفِكُمْ وَبِهَا فَقَدْ طَابَ الشَّرَابُ وَمَرْتَعِي

وَالْقَبِيرُ أَنْ مَرَّتْ عَلَيَّ فَخَاطَرِي تَأْبِي الرَفِيعَ يُوْهَرُجُ وَيَسَارُ قَعِ
صُورٌ وَأَشْكَالٌ وَمَنْعَةٌ نَاطِرٍ وَالْوَهْمُ يُخْلَعُ بِالسَّرَابِ وَيُلْقَعُ
لَيْتَ الْغَطَاءَ عَنِ الْعَيُونِ تَكْشَفَتْ فَيُبَيِّنُ مَا أَلْفَتْ نَفْسُ الطُّمَعِ
زَرْعٌ بِلَا لَمِيرٍ وَطَبِيرٌ صَامِتٌ صَمَاءٌ عَنْ لَحْنِ الشَّجَى وَسُجْعِ

وعوازلُ الأحرارِ خلفَ زيوفاها
بادولة العزِّ الهنيءِ السرمدي
فمننى أجرُ سيفِ عزمي فأنكا
سُحرَ الفؤادِ بلطفكم وجمالكم
ممازلتُ أعتفُ والهيامَ ملازمي
لن أنتهي حتى يكون لوصولكم
فلقد سلوتُ ولستُ يومًا سائيا
جئتُ الرحابَ ونجدي بولائكم
صارَ إذا ما الغيرُ يُسدي مِنَّة

كالتأزعاتِ الناشطاتِ الهزَّعِ
عزلُ العواذلِ لا يزالُ مُقطَّعي
ويفوز حلمي رغم أنفِ المدَّعي
ولغيركم قلبي وسمعي لم يمي
وعطاؤكم مهما يكن لم أقنع
قبلي الوفاءَ لجُلَّسي والتُّسيعِ
يا من بهم أبقى ويفني مُروعي
والمُعرفُ يقضي بالمعطاء الأوسع
وعليكم حبسَ الرجاءِ تمتَّعي

* * *

خلفُ الوعيدِ فشأنكم يا سادتي
والعودُ يُخمدُ باللقاءِ ووصله
يا آلَ ينسربُ يا كسرامُ
فبكم إلي المولي العزيز توسلي
بكم التوسلُ في الشدائدِ والندي

أما الوعودُ فاجزَلُ وبأنفع
يا من بهم حسنتُ عوائدَ مرجعي
ماذا جرى لعهودكم وتضرُّمي
وبكم علي الأبوابِ رنَّ توقُّعي
منكم يسابقُ كالسحابِ السُّرعِ

* * *

زُفُّوا الأمانَ إلي الكئيبِ فانه
ثوي الرجاءُ بكم وإن بعدَ المدي
منَّا على حرم الحبيب تحية
ومسلما برقيقة تحلو بها

خَضَبَ الشَّيبُ نواحه بالأبدعِ
فأراه يأتي بالنوالِ الأمتعِ
تزكو كما يزكو السجودُ لرُكعِ
زمرُ الملائكِ والطيورِ السَّجعِ

* * *

جسبي علوا..

لكن تنازع شـــــــــــــوقي تارة أدبي
فأطلب الوصل لما يـضعف الأدب
ولست أبرح في الحـــــــــــــالين ذا قلق
نام وشـــــــــــــوق له في اضلعي لهب
« ابن الخيمي »

هذا هو تلميذ ابن الفارض، والإبن الروحي لهذا الشاعر
الصوفي الأشهر. ولد شهاب الدين ابن الخيمي في
اليمن، أي أنه يمني الأصل، ولكنه عاش معظم حياته
التي إمتدت إثنين وثمانين عاما في مصر حتى توفي
سنة ٦٨٥هـ

وقد سار ابن الخيمي الذي كان يحيا على مقربة من ابن الفارض الذي كان يعامله
معاملة الوالد لولده، سار على نفس نهج أقرانه من شعراء الصوفية الذين سادوا القرن
السابع الهجري.

ومع ذلك ، فانه يبدو أن ابن الخيمي قد بدأ حياته شاعرا غزليا. ولعل ما يدفع إلي هذا
الاعتقاد هو تلك الأبيات التي يصف فيها المحبة التي لا تليق في ظاهرها بالمحبة الالهية:

أيا مَنْ سَلَّوْا عِنا وَمالُوا إلى الغدْرِ	ومالزموا أخلاقَ أهلِ الهوى العُذرى
ويعد حلاواتِ التواصلِ والهوى	جنوا مَرَّ طعمِ الهجرِ مِنْ عَلَقَمِ الصبرِ
إذا ما رجعتُمْ عَنْ محبتكم لنا	مشاةً رجعنا عن محبتكم نجري
وإن كنتمُ في الجهرِ عنا صددتمُ	ففي سرُّنا عنكم نصدُّ وفي الجهرِ
سكنتم فؤادي مبرةً ورحلتكم	فأصبح منكم خالياً خالي السرِّ
وقال لي العذالُ هل أنت راجعٌ؟	إذا رجعوا عن غدريهم قلتُ لا أدري!

ولابن الخيمي أشعار كثيرة في الحب الالهى، ويرى الباحثون أن شعره الصوفي
يجعله في مقدمة شعراء الصوفية الكبار لرقته، وعذوبته وإبتعاده عن التكلف والصنعة.

ونقدم هنا «بائية» ابن الخيمي الرائعة «حسبي علوا»:

يا مطلباً ليس لي في غيرِ أربُ	إليك آل التقصى وإنتهى الطلبُ
ومما أرانى أهلاً أن تواصلني	حسبي علواً بأنى فيك مكتسبُ

* * *

لكن يَنازعُ شوقي تارةً أدبي فأطلب الوصلَ لما يضعفُ الأدبُ

ولست أبرحُ في الحساليين ذا قلقٍ نام وشوقٍ له في اضلعي لهبٍ

ومدعٍ كلما كفكفت صَبَبَهُ صوتًا لذكرك يعصيني وينسكبُ
ويدعى في الهوى دمعي مقاسمتي وجددي وحزني ويجري وهو مختضبُ
كالطرف يزعم توحيدَ الحبيب ولا يزالُ في ليله للنجم يرتقبُ

يا صاحبي قد عدت المسعدين فسا عدني على وصبي لا مسك الوصبُ
بالله إن جرت كنبأًا بلدي سَلَمٌ قف بي عليها وقُلْ لي: هذه الكتبُ
ليقتضي الخلدُ من أجراءها وطراً في تربها ويؤدي بعض ما يجبُ

وملُ إلي البان من شرقي كاظمة فلي إلي البان من شرقيها أربُ
وكلما لاح معنى من جمالهم لباه شوقٌ إلي معناه مُنتسبُ
أظلُّ دهري ولي من حبهم طربُ ومن أليم اشتياقي نحوهم حربُ

لله قومٌ بجرعاء الحي غُيبُ جنوا على ولما أن جنوا عتَبوا
يا ربِّ هم أخذوا قلبي فلم سخطوا؟ وانهم غصبوا عيشي فلم غضبوا؟
هم العُريبُ بنجد مُدُ عرفتهم لم يبق لي معهم مالٌ ولا نشبُ
شاكون للحرب لكن من قدودهم وفاترات اللحاظ السمرُ والقضبُ
فما ألموا بحيٍّ أو ألم بهم إلا وغادرو على الآيات وإنتهبوا
عاهدتُ في زمن البطحاء عهدي هوي إليهم وتمادت بيننا حَقَبُ
فما أضاعوا قديم المهد بل حفظوا لكن لغيري ذاك العهد قد نسبوا

من متصفي من لطيفٍ منهم غَنجٍ لدن القوام لاسرائيل يتسبُ

مُسْبَدَلُ الْقَوْلِ ظَلَمًا لَا يَفِي بِمَا
تُبَيِّنُ لثَغْفَتُهُ بِالرَّاءِ نَسَبَتُهُ

مَوْحِدٌ فَيَرِي كُلَّ الْوُجُودِ لَهُ
فَمَنْ عَجَائِبِهِ حَدَّثٌ وَلَا حَرْجٌ
بَدْرٌ وَلَكِنْ هَلَالًا لَاحِ اِذْ هُوَ بِالـ

فِي كَأْسٍ مَبْسَمَةٍ مِنْ حُلُو رِيْقَتِهِ
فَلَفْظَةُ أَبَدًا سَكْرَانٌ يُسَمِّمُنَا
تَجَنَّبْنِي لَوَاحِظُهُ لَمِينًا وَمَنْطَقُهُ

حُلُو الْأَحَادِيثِ وَالْأَلْحَاطِ سَاحِرُهَا
لَمْ تَبْقِ أَلْفَاظُهُ مَعْنَى يَرِقُ لَنَا
فَدَاؤُهُ مَا جَرَى فِي الدَّمْعِ مِنْ مَسْهِجٍ

وَيَعِ الْمُنِيمُ شَامَ الْبَرْقِ مِنْ إِضْمٍ
وَأَسْكَنَ الْبَرْقَ مِنْ وَجْدٍ وَمِنْ كَلْفٍ
وَكَلَمًا لَاحٍ مِنْهُ بَارِقٌ بَعَثَتْ
وَمَا أَعَادَتْ نُسَيْمَاتُ الْغُيُورِ لَهُ
وَاهَا لَهُ أَعْرَضَ الْأَحْبَابُ عَنْهُ وَمَا

سقاني الحب..

أري للقلب نحوكم المجلدأ
فكم ليل يقريكم تقضى
وكم من تشوة وردت نهارة
لأسمع من جنابكم خطابا
إلي سحر سجوداً واقترابا
فلا خطأ وعيت ولا صوابا
« ابن قضيب البان »

ربما لا يعرف الكثيرون أن أبو الفيض عبدالقادر بن محمد (٩٧١ - ١٠٤٠ هـ) الذي اشتهر بإبن قضيب البان هو أحد أئمة التصوف الذين ولدوا ونشأوا في بلاد الشام (حلب) ثم وصلوا مصر فاستقروا فيها ليعملوا ذكرهم. وينتشر صيتهم ، ويتقلدوا ما يخلد اسمهم قروناً من الزمان.

وعندما استقر المقام بأبي الفيض في مصر، زاد انتاجه الصوفي المتميز حتى بلغت مؤلفاته العظيمة في التصوف أربعين كتاباً أشهرها «نهج السعادة» ، و«الفتوحات المدينية»، و«نفحة البان» ، و«المواقف الإلهية»، و«رسالة في أسرار الحروف»، و«شرح أسماء الله الحسنى» ، و«مقاصد المقاصد»، و«عقيدة أرباب الخواص».

ولما كانت مؤلفات أبي الفيض تدل على رسوخ قدمه في التصوف والمعارف الإلهية، فقد بشره شيخ الاسلام يحيى بن زكريا القاضي بمصر وقتذاك بمشيخة الاسلام وبايعه على الطرق الثلاثة: النقشبندية والقادرية والخلوتية.

ولابن القضيب البان ديوان شعر على لسان القوم، وله نائية عارض بها نائية ابن الفارض، وكلماته تفيض بالجو الصوفي الروحاني، والرموز الصوفية المعروفة، التي تتجسد في شعر الصوفية.

وها هي ذي بعض من أبيات ابن قضيب البان الرائعة التي تروى جانباً من تصوفه، وما تعلقت به نفسه في الحب الإلهي:

سقاني الحب من خمر العيان	فنهتُ بسكرتي بين الدنان
وقلت لرفقتي رفقا بقلبي	وخاطبتُ الحبيب بلا لسان

* * *

شربتُ لحبه خمراً سقاني كمحبي فاتشي منها جناني

شَطَحْتُ بِشَسْرِهَا بَيْنَ النَّدَامَى وَرَشْدَى ضَاعَ مَا قَسَدَ دَهَانِي

* * *

فَهَامَ أُولُو النِّهْيِ مِنْ بَعْدِ سَكْرَى وَغَابُوا فِي الشَّهْودِ عَنِ الْمَكَانِ
مُرِيدِي لَا تَخَفْ وَاشْطَحْ بِسَرَى فَسَقَدَ أَدْنُ الْحَسْبِيبِ بِمَا حَيَّانِي

* * *

فَأَكْرَمَنِي وَتَوَجَّنِي بِتِلْكَ يَقُومُ بِسَسْرِهِ قُطْبُ الزَّمَانِ
وَأَمَرَنِي عَلَى الْأَقْطَابِ حَتَّى سَرَى أَمَلِي بِهِمْ فِي كُلِّ شَانِ
وَأُطْلَعَنِي عَلَى سِرِّ خُفَى وَقَالَ السُّتْرُ مِنْ سِرِّ الْمَعَانِي

* * *

فهرس

رقم الصفحة	الموضوع	٢
٤	إهداء..	
٥	تقديم..	
٨	شغلت قلبي - سمنون المحب.	١
١٤	يا واحد الحسن - عفيف الدين التلمساني.	٢
١٨	وارحمنا للعاشقين - السهروردي.	٣
٢٣	الوسيلة - عبدالقادر الجيلاني.	٤
٢٨	مريضة الأجناف - ابن عربي.	٥
٣٢	إلهي - أحمد البدوي.	٦
٣٦	أطيار الجنان - جلان الدين الرومي.	٧
٤٣	سقاني محبوبي - إبراهيم الدسوقي.	٨
٤٧	تمشقت نور الله - الشيخ علي عقل.	٩
٥٣	فطرة النفس - أبو العباس المرسى.	١٠
٥٧	بحار الهوى - الحلّاج.	١١
٦٤	كيف السبيل؟ - الششتري.	١٢
٦٩	شكوي وجواب شكوي - محمد إقبال.	١٣
٩٣	كل المنى - ذا النون المصري.	١٤
٩٧	مالي سواك - أحمد الحلواني.	١٥

١٠١	مجاهدة النفس - الإنطاكي.	١٦
١٠٥	البردة - البوصيري.	١٧
١١٨	سلمي - اليافعي	١٨
١٢٢	كأسي وخمري - رابعة العدوية.	١٩
١٢٧	ته دلالة - ابن القارض.	٢٠
١٣٥	ليلي - نجم الدين.	١٢
١٣٩	لن أفعل كسائر الناس - ابن أبي الخير.	٢٢
١٤٢	إنشودة الساقى - النابلسي.	٢٣
١٤٦	ظهرت لكل الكون - ابن عطاء السكندري.	٢٤
١٥٠	بالنور أشرق - إبراهيم حلمي القادري.	٢٥
١٥٤	حسبي علوا - ابن الخيمي.	٢٦
١٥٨	سقاني الحب - ابن قضيب البان.	٢٧

مروية للطباعة والنشر
١٠٠٧ شارع السلام - أرض الغواة الهندسين
تليفون : ٣٠٣٦٠٤٣ - ٣٠٣٦٠٩٨

أطلس قصائد الصوفية



الحب الصوفي يتخذ فيه الشاعر من الذات
الالهية موضوعاً بدور حوله ، وفيه يصف الحب
ولذته ، وما يجده من لوعة وأسى أو قرب
ووصال . وكذلك ما يمر به في تصوفه من
مقامات وأحوال ، وبجاهدة مستمرة للنفس ،
وما يتعرض له من فيض رباني ، والهام قلبي ،
وسمو ووحى .

وفي شعر الصوفيين يتجسد هذا الحب
الصوفي الالهي الغامر الذي نراه ينقسم شقين :
شق يتعلق بحب الله تعالى للعبد . وآخر
يتعلق بحب العبد لله ، وكلاهما أفاض فيه
الشعراء الصوفيون .

وفي هذا الكتاب نحاول أن نسلط الضوء
على عدد من أشهر شعراء الصوفية ، الذين
قدموا للإنسانية نتاجاً شعرياً رائعاً وراثاً إنسانياً
خالداً آمليين من المولى عز وجل أن يحظي
برضاك ، واستحسانك .

مجدي كامل



To: www.al-mostafa.com